عَودة المحَاربْ

٢٥

عَودة المحَاربْ

عن جـــورج جاليَـــان

بقـــلم: عادل الغضـــبان

الطبعة الثالثة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

تمهيد

عزيزي القارئ الناشئ

يَحلْوُ لي أن أظنّ أنك ، قبل أن تَفْتَح هذا الكتاب ، قد قرأتَ في مجموعة « أولادنا » التي تُصْدرها دار المعارف بمصر ، كتاباً آخر عنوانه «حصان طروادة» ووقفتَ منه على قصّة الحرب الطويلة الضَّروُس المشهورة باسم « حرب طروادة » .

وما من شكّ في أن قراءة ذلك الكتاب قد جعلتك تَألَف ما دارَ بين إبطال الإغريق والطّرواديّين ، من معارك عنيفة ، وأحداث جسِام ، فأنت تَعْرِف إذنْ « أوذيس » الأريب الماهر الملك « إيتاكا » بطل القصّة التي يَرْويها لك هذا الكتاب .

والعنوان الأصيل لهذه القصّة هو « الأوذيسة » نحت من اسم «أوذيس » وأصبح عَلَمًا لرحلةٍ طويلةٍ مشحونةٍ بمختلف الحوادث قام بها « أوذيس » عائداً إلى جزيرته بعد حِصار « طروادة » .

والقصّة في أصلها «الأغريقّي ، مَلْحَمَة شعريّة جميلة ، أحْدَثُ عهداً من « الإلياذة) تُنْسَب» في الأعمّ الأغْلَب ، إلى شاعرٍ

جوّال ، يُطلْق عليه المسْمُوع المتُوَاتِر اسم « أوميروس » .

وهذا الكتاب الصغير ، يَرْوي لك، يا قارئي العزيز أشْوَاقَ المراحل من « الأوذيسة » ويجلوها لك بَيِّنَةً مُمْتِعَة ، فلعلَّه يثُير فيك الرَّغْبَة إلى الاطِّلاع على النَّصّ الأصلي لرائعةٍ من أجمل روائع الشعر الإغريقي القديم .

١

جزيرة صغيرة تكللّها الغابات ، وتُحيط بها الصُّخور ، وتَبْرُز باسمةً متألقة وسط الأمواج الزُّرْق من بحر « أيونيا » ... تلك هي «إيتاكا» وطن « أوذيس » .

ولو نظرنا إليها في المصوَّر الجغرافي ، لرأيناها نقطةً سوداءَ ليس إلاّ.. ولكن أوسع القارات ، لا تَعادِ لُها مجداً وعَظَمة كتبهما لها التاريخ في صَفَحاته .

مَرَّ بها شاعر ، واستمدَّ منها الوحي والإلهام ، وتغنّي بمصايب ملكها وآلام مَلِكَتَها ، حتى أصبحت مختلف الأجيال على مر العصور، ترأف (بأوذيس) وتبكي مع « ينلوب » وتشاطر « تليماك » واسعَ آماله .

فَلْنَسْمَع نحن أيضًا تلك القصّة الجميلة الشائقة ، ولْنَنْغَمِرْ في حوادثها وأحداثها .

لِنَركَب أوّلاً تلك السفينةَ الميّاسة زَهْواً وخَيَلاَ ، المتهادية بأشْرِعتَها الْبيض فوق البحر الأزرق ، تَمْخُرُ عُباب الماء إلى الأفُق الذهبي ، والشواطئ البعيدة التي شهَدِت مغامرات « أوذيس » وما تعرَّضَ له من مخاطر ، وما اكتنفه من حوادثَ عجيبةٍ غريبة .

لن نذهبَ في بَدْء الرّحلة إلى « إيتاكا » التي غاب عنها مَلِكها سَنَوات ، منذ اليوم الذي أهاب فيه الرئيس الأعلى للإغريق ببني وطنه، فلبَّى « إوذيس » النداء ، ومضى يحارب في بلاد « طروادة » بشجاعته المأثورة ، وذكائه الثاقب ، وفكره الحلاّق ، حتى أصبح لا يُعْرَف إلا باسم « إوذيس » الحكيم .

على أن مغامرات « أوذيس » كثيرة متعددة ولقد يضَيق المقُام هنا عن أن نصف أعماله الباهرة في حصار « طروادة » ، وأن نذكر كيف تسلَّل إلى المدينة متنكراً في زِيِ راعٍ من الرُّعاة ، وكيف تمكَّن من معرفة أسرار الدفّاع فيها ، وكيف استَطاع أن يلوذ بالفِرار ، تاركاً

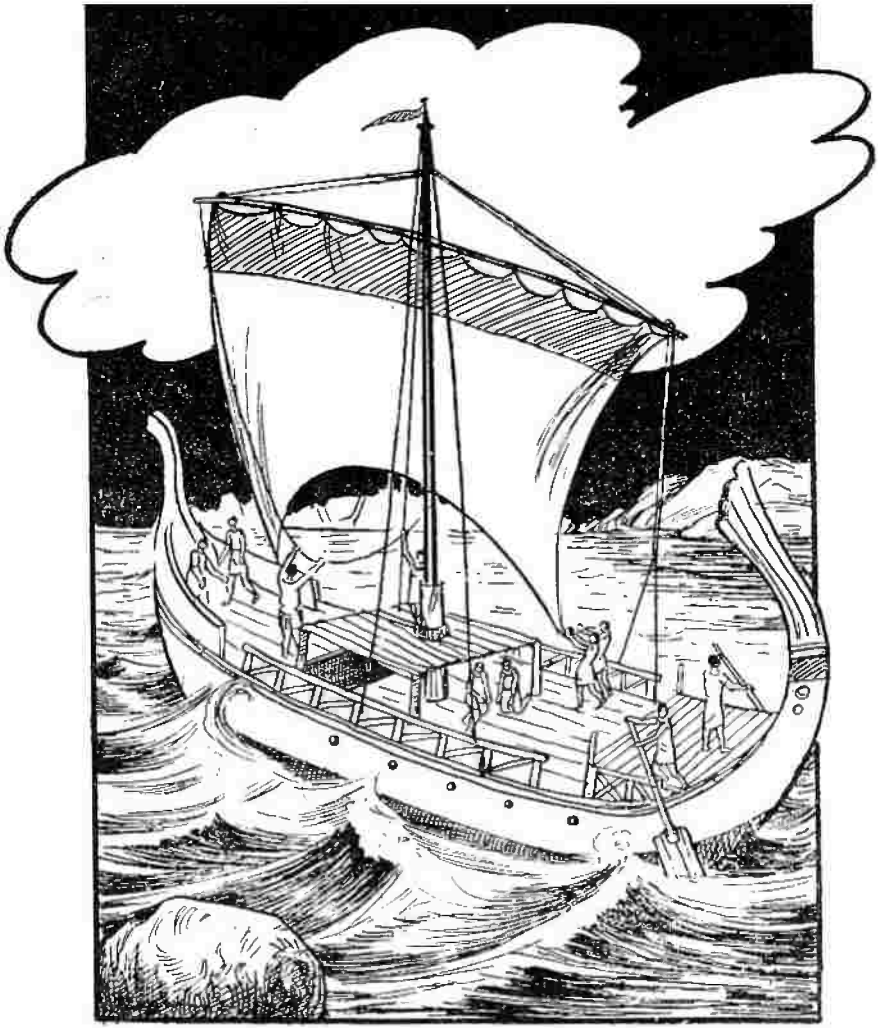

وراءه آكامًا من جثث القتْلىَ .

في الوقت الذي نَعْبَر في مَضيَق « الدَّردْنَيل » ، كانت الحرب قد وضَعَتْ أوزارها ، وكان « أوذيس » ورجاله الأوفياء قد نقلوا إلى سفنهم الراسّية في الميناء ، مجموع الأسلاب الضَّخمْ

التي غَنمِوها ، وتأهبَّوا للعودة فرحين مبتهجين .

وحين كان « أوذيس » يحُثّ رفاقه على العمل ، كان قلبه يخفقُ طَرَبًا ، كلمَّا فكَّر في أنه عما قريب سوف يضُمّ إلى صدره زوجته «ينلوب» وابنه الحبيب « تليماك » وكان يقول لأخواته :

لا شيء يَعَدْلِ الوطن أيها الصّحاب ، وليس ثَمَّة أحَبّ منه إلى قلب الإنسان !

وكان كلما لاح له أنه يَلْمَح في الأفق الدخُّان المتصاعد من أرض بلاده، أقبل على رجاله يستحثّهم على الإقلاع ، ويؤنَبهم على ما يبدو له منهم من بُطْءٍ وتَقاعُس ، وقلبُه شيَّق توَّاق إلى مَسْقَط رأسه وأحبابه .

وأنَّي له ، ويا للأسف ، أن يدري أنه سيقضي أيامًا لا عَدَدَ لها، مملوءةُ بالويلات والأهوال والأخطار قبل أن يَنْعَم بالعودة إلى الوطن .

وما هي أن تتحرّك سفنه ، وتغادر شواطئ « طروادة » حتى أخذتْ هُوجُ الرياح تتلاعب بها وتدفعها إلى بلاد « السركونيين » ، فلما وصل

إليها أعجبه ما تراءى له فيها من جمال وغِنيً ، فقَرَّ قرارُه أن يُلقْي المراسي في سواحلها ، فنزل هو وجماعة إلى أقرب مدينة فيها ، فأعْمَلُوا سيوفهم في رِقاب أهليها ، وسلَبُوا ونَهَبُوا ، وجمعوا غنائمَ لا تُحْصَى .

وبينما كانوا مستسلمين إلى الطَّعام والشَّراب في نَهَم وشَرَه ، ومن حولهم آكام الأسلاب التي غَنموهُا ، انحدرت إليهم من أقاصي البلاد، جماعاتٌ كثيفة من الآهلين ، كثافَة ورق الشجر في فصل الرّبيع ، وانقضَّوا عليهم ضَرْبًا وطَعْنًا يثأرون منهم لأهلهم وبلدهم ، ويصّدون المعتدين ، ويوَدُّون لو رَمَوَا الأحياء منهم من أعماق البحر .

واستمّرت المعارك حاميةَ الوَطيس طولَ النهار بين الفريقين ، حتّى رجحت عند الأصيل كفَّة العَدَد ، وكانت الغَلَبَة للمدافعين عن أوطانهم، فاضطرَّ «أوذيس» ورفاقه إلى الانسحاب والتقهقر ، ناجين بأنفسهم إلى مراكبهم ، تاركين وارهم ستَّة ملاّحين من كل جماعة منهم جثُثَاً هامدة مبعثرة في العراء .

وما كادوا يستريحون قليلاً من وَعثْاء القتال ، حتى هبَّت عليهم عاصفةٌ هَوْجاء ، رهيبة الأنواء ، غلَّفت في ضَبابها الأرضَ والبحر ، ومزّقت الأشرعة ، ورنّحت السفن الثقيلة ، فأصبحت لُعبْة في أيدي الريّاح والأمواج .

وفي فجر اليوم الثالث ، هدأت العاصفة وركدت الأمواج ، فسارع

الملاّحون إلى رفع السواري ونشر القلوع ، وأحسوا بالأمل يتجدّد في قلوبهم .

وعلَّل « أوذيس » نفسه بالوصول بعد حينٍ قريب إلى شواطئ وطنه ، وطَرْح المراسي في موانيه ، ولكن الأقدار حالت دون تحقيق مَرامه وتَعلَّة نفسه ، فينما كانت سفنه تَمْخُر عُباب الماء متهاديةً مختالة عصَفت فجأة ريُح الشَّمال ، واصطخبت في طيَّات البحر التيارات العنيفة ، فاندفعت المراكب إلى غير وُجْهتَها ، وسارت على غير هُدًى ، وبقيت الحال على هذا المنوال تسعة أيام لم تْهدَأ فيها الريح ، ولا استطاعت السفن إلاّ أن تسير على عكس مَسرْاها .

ولم يَصْفُ الجوّ إلاّ في اليوم العاشر ، فتمكنَّت مراكب « أوذيس» من الرُّسُوّ في شاطئ بلدٍ يُعْرَفُ أهلها بآكلي « اللوتس » .

وسُكَّان هذا البلد العجيب ، يتغَّذْون بزهرة « اللوتس » اللذيذة الطَّعْم ، الحُلْوة المَذاَق حلاوةَ الشَّهْد ، غير أن مَنْ يذوق هذه الزهرة السَّاحرة ، يَفْقِد على الفور ذاكرته ، ولا يعود يذكر شيئاً من الماضي ، ولا يفكّر في المستقبل ، ويقضي أيَّامه في أحلام عَسْجَدية .

وهكذا وصل « أوذيس » ورفاقه على غير علم منهم إلى بلد النّسيْان ، فنزلوا الشاطئ يتَزّودون منه ببعض الماء ، فعاملَهَم سكّانه معاملةً رقيقةً لطيفة ، وقدّموا لهم باقاتٍ من زَهَرات « اللوتس » .

فلم يَكَد الملاّحون يرفَعُون تلك الزَّهَرات إلى شفاهِهم ويَنْعَمُون بلذيذ طَعْمها ، حتى غطَّى النَّسيْان على عقولهم ، فما عادوا يَذكرون رفاقَهم ولا سفُنَهم ، ولا عاد نِداءُ الوطن يَلْقَى منهم أذُنًا صاغية ، فاسْتَلْقَوْا إلى العُشْب الأخضر ، وغَرِقُوا في بحارٍ من الأحلام .

فاضطُرَّ « أوذيس » إلى أن يَقْسُوَا عليهم ويَشْتَدّ في معاملتهم ، حتى ينتزَعهم من غَيْبُوَبتِهم ، وينَتْشَلَهم من رِبْقَة الأحلام والأوهام، فَساقَهُمْ إلى السُّفُن غيرَ عابئ بتذمُّرهم وشكواهم ، وقيَّدهم إلى مقَاعِد المجاديف، وأمَرَ بالإقْلاع خَشْيَةَ أن يَطْعَم بقَيَّة الملاّحين من هذه الزّهرة الفاتنة اللذيذة ، فيَرُوحوا في غيبوبةٍ حالة تَحْجُب عنهم تَذْكار الوطن .

فأطاع الرّجال أمَرَ « أوذيس » والأسىَ يَمْلأ قلوبهم ، والدمّوع تَنْهَال من مَحاجرهم ، وأخذت المجاذيف تَضْرب صَفَحات الخِضَمَ الزَّاخر ضَرَبات قويَّة ، تَنْثُر الزَّبَد على تلك الصَّفَحات ، وتبتعد بالسُّفن رويَداً عن بلاد الأحلام والنَّسيْان .

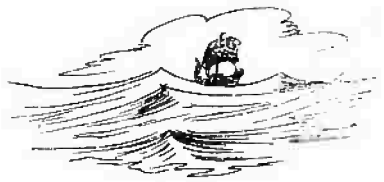

٢

ظَلَّتْ سُفُن « أوذيس » تواصل مَجرْاها في عُرضْ البحار أيَّامًا كثيرة، وتتحطَّم على جوانبها الأمْواج الهادرة الثَّائرة ، حتى صَفَا لها الجَوّ ، وألْقَتْ مَراسِيهَا في بلاد العَمالِقة الوحوش .

وهؤلاء العَمالِقَة ، قَوْمٌ على جانبٍ كبيرٍ ، من بشَاعة المنْظَر والدَّمامة، وليس لهم إلاّ عَيْنٌ واحدة في وسطٍ الجبين ، وهم أناسٌ يمتازون بالبَطْش والعُنْف ، ولا يَخْضَعُون لأيّ قانونٍ من القوانين ،

وأرْضُهم جيّدة حِصبْة ، ولكنهم لا يغْرِسُون فيها شجرة ولا يزرعون نَبْتَة ، ولا يَعْرِفون للفِلاحةَ مَعْنىً من المعاني ، وكُرومُهم مع ذلك مُثْقَلَة الأغصان بعناقيدِ العنب ، ومروجُهم ومَراعيهم مملوءة بقُطْعانِ الأنعام ، تَرْعَى فيها سارحةً مارحةً .

ويسكن هؤلاء العمالقةُ المغاورَ والكُهُوف في قِمَم الجبال ، فتلك مملكُتهم يأمرون فيها وينَهْوَن ، ويرعون فيها شؤون النساء والأطفال .

وعلى مَقْرُبَة من بلادهم ، جزيرةٌ حافِلَة بالغابات الكثيفة ولكن لم يَنْزِل بهاً أحدٌ منهم قَطّ ، فليس لديهم زوارق ولا سفُنٌ يركبونها وينقلون بها إلى تلك الجزيرة ، ليستسلموا فيها إلى الصَّيْد والقُنْص ، أو ليستولوا على بعض ما يَرْعَى فيها من المِعْزَي المتوحشّة وعددُ قُطْعانها وافر كبير .

وتُعَدّ هذه الجزيرة من أجمل الجُزُر في ذلك المحيط ، فالمرُوُج الخُضْر تَكْسُو تلالهَا ،وتنحدر منها إلى شاطئ البحر ، فلو جالت فيا يد الزارع لأَنْبْتَت أوفرَ الحصَاد ، وفي الجزيرة ميناء يَصْلُح أن ترسو فيه السفن هادئة مطمئنَّة ، وفي صدر الخليج منه يَنْبُوع ماءٍ صافٍ يتفجَّر من مَغارة مُظلَّة بشجر الصَّفصْاف .

ففي هذا الميناء ، ألقى « أوذيس » مراسي سفنه في ليلِة حالكة السَّواد كثيفة الضبَّاب ، وإلى ساحله الجميل الناعم استلقى رِفاق «أوذيس » .

ونامُوا نومًا عميقًا في انتظار طلوع الصبَّاح .

ولما انْبَثَق الفجر ، هبَّوا جميعًا من رقادهم ، ونَفَضُوا عنهم سَنَة الْكَرَى ، ومَضَوْا يجولون في أنحاء الجزيرة ، مُعْجَبين بما يبدو لهم منها من مناظرَ خَلاَّبة ومشاهدَ جميلة فتَّانة .

وما هي إلاَّ أن تَلُوح لهم قُطْعان المِعْزَي المتوحشّة ، حتى يشُدُّوا أقواسهم ، ويُعْمِلوا فيها سهامَهم ، ويصطادوا منها عَدَدًا وافراً كان عمادَ الولائم التي أوْلَمُوها وأكلوا فيها حتّى امتلأوا ، في جو يَسُدُه الأنْس والمَرَح .

وبعد أن فَرَغُوا من الطعَّام ، واستراحوا في أحضان تلك الطبيعة السَّاحرة ، عَلقَت أنظارهم بالشواطئ الأخرى من بلاد العمالقة ، واسترعتْ انتباههم وأعمدةٌ من الدخَّان تتصاعد منها سارحةً في أجواز الفضاء ، ثم طرقَتْ مسامِعهَم أصواتٌ تنحدر إليهم من وراء المَوْج ، فتبينَّوها فإذا هي أصوات رجال وثُغاء شِياه .

فاخْتَلَج في صدره « أوذيس » روحُ المغامرة ، فجمعَ أصحابه ووقَفَ فيهم خطيبًا وقال لهم :

– « ابْقَوْا هنا يا أصحابي .. أمَّا أنا فسوف أمضي بسفنّي إلى الجانب الآخر من الخليج ، وَلسوف أعرف أيّ شَعْبٍ من الشعوب يَقْطُنُ هذه الأصقاع ، أمتوحّشٌ هو أم مسُتْأنِس مضِيْاف » .

واختار « أوذيس » أثنى عشر رجلاً من رجاله الأشِداء ليَصْحَبُوه

في رحلُته ، فذَهبُوا كلهم يسْتطلعُون ويَسْتكشفُون ، ونزَلُوا الشَّاطئ ومشوْا قليلاً على غير هُدًى ، حتى وصلوا إلى كَهْفٍ عميق الغوْر غير بعيد من الشاطئ ، تُظلَّه أوراق الغار ، وتتناثر حوله قطعٌ ضَخْمِة من الحجارة وجُذُوع الأشجار .

وكان ذلك الكَهْف مسْكن العمْلاق « بوليفيموس » وهو أشدُّ العمالقِة المتوحشين بأسًا وبطْشًا ، وعُنْفاً وقسْوَة ، يخشاه ويرْهب جانبه أهل تلك البلاد جميعاً .

وهذا العمْلاق المتوحَّش هو ابن « نبتون » إله البحر ، وقد آثرَ أن يعيشَ في عُزْلة بين عديد قُطْعانه .

وعندما بَلَغ « أوذيس » ورفاقُه الكَهْفَ ودخلوه ، لم يجدوا فيه أحداً ، ذلك أن « بوليفيموس » كان قد غادره في الفجْر ، وانطلق يَسُوق أغنامه إلى المراعي في قمَم الجبال .

جال « أوذيس » ورفاقُه في أنحاء ذلك الكْهف ، فأعْجبِوا أيَّما أعجابٍ بما شاهدوه فيه من تنسيقٍ ونظام ، فهذه حظيرة الجِديْان ، وهذى حظيرة الحُمْلان ، وتلك سِلالٌ تراكم فيها الجُبْن ، وهذه أوْعِية مملوءة باللَّبن وأخرى رُصَّت فَيها المُؤَن .

وبَلَغ الفرح بأحد رجال « أوذيس » مبلَغَه إزاء هذه الغنائم فصاح في رفاقه قائلاً :

– نأخذ أوّلاً سِلالَ الجُبْن ، ثم نعود ونسوق الحُمْلان

والجديان إلى السفُن ، ونحملها معنا إلى بلادنا العزيزة ، مواصلين السَّيْرَ في مختلف البحار ليلَ ونهار ، حتى نبْلُغ هدَفنا المنْشُود .

ولقد كان حريًّا « أوذيس » أن يستجيب لِنداء هذا الرفَّيق ، فلو أنه فعل لنجا هو ورفاقهُ من شدائدَ وأهوالٍ كانت تحوُم حولهُم ، غير أن «أوذيس » ليس بالرّجال السَّارَق الخطاف ، فقال لرفقائه :

– « أمْسِكُوا عمَّا يقول صاحبِنُا ، فلعلَّ رَبَّ هذا الكهْف يعاملنا معاملة الأصدقاء ، إذا نحن غمرنْاه بالتحف والهدايا ، ولا إخالُهُ يضرب بقواعد الضيّافة عُرْض الحائط » .

ثم انتظروا عوْدَة العِمْلاق ، وشغلُوا أنفسهم في تلك الأثناء ، بإشْعال النار وتناوُلِ بعض الطعَّام .

وعاد « بوليفيموس » إلى كهْفِه عند هُبُوط المساء ، وكان يحْمِلُ رِزمة ضَخْمة من الحَطَب ، سوف يوقُدِ بها النار ويُعِدّ عليها طعامَ العشاء .

فألقى بِحمِلْه إلى الأرض ، وسُمِعَ لذلك الحِمْل عند ارتطامِه بأرض الكَهْفَ ، دَوِيٌّ شديد أثَار الرُّعْب في قلوب « أوذيس » وقلوب رفاقه ، فجرَوْا يختبِئُون في المظْلم من زوايا الكْهف .

وأدْخَل العمْلاق بعَد ذلك قُطْعانه إلى الكْهف ، ثم تناول في غير ما عنَاءٍ ولا مشقَّة ، صَخْرةً ضَخْمةً يعْجِزُ عن رَفْعِها خمسون

رجلاً من أقْوَى الأقوياء ، وسدَّ بها فتحْة الكْهف ، ومضى يُعِدّ طعامه ؛ فبدأ أوّلاً يحْلُب المعزي ، ويضع الحليب في سِلالٍ من القصب ليصنعَ منه الجُبْن ، ويرمي بالنصف الباقي في أوْعية كبيرة ليكون شرابهَ عند تناوُل العشاء ، وبعد أن فَرَغ من هذا كلّه ، أوْقَد النار ، فأضاء لَهَبُها أرجاءَ الكْهف ، ومكَّنه من أي يرى « أوذيس » ورفاقه متلبِّدين وراءَ قُطْعان الغَنَم .

فصاح فيهم صيَحْةً دَوَّتْ كالرَّعْد وقال :

– « أيّها الغرباء من أنتم ؟! ومن أين أتيتم ؟ أفأنتم تُجَّار شُرفَاء أم قُرْصان يقْطعُون البِحار ، وينْشُرون حيثُما حلُّوا الموتَ والدَّمار ؟

فملأ ذلك الصَّوت الأجشّ فضلاً عن سَحْنَة صاحبه البَشِعَة الكريهة ، قلوب القوم بالرُّعْب والفزَع ، فلم ينْبِسُوا ببِنتِ شفة ، ولم يجْرُؤ على الجواب إلاّ « أوذيس » ، فأهاب بشجاعته وقال :

– « نحن قومٌ من الإغريق عائدون من « طروادة » ، فساقتْنا هُبوب الريّاح وشديدُ العواصف إلى هذه البلاد ، ولقد حارَبنْا منُضْوَين إلى راية البطل العظيم « أجاممنون » ربّ المجد والسؤْدُد تحت قُبَّة السماء ، ولئن كنَّا جنوداً أعِزّاء ، إننا مع ذلك جئنا نلتمس منك أن تَشْمَلَنا بترْحابِك وكَرم ضِيافتك » .

فقهْقه « بوليفيموس » ضاحكاً عند سماعه هذا الكلام ، وهو

العمْلاق القاسي القلب ، الغَليظ الكَبِد وقال :

– « ما أنت إلاّ رجل مجنون أحْمق! وأني لأسْخرُ من قواعد الضيّافة التي تتحدَّث عنها ولو شئتُ وسّولتْ لي نفسي ، لدَقَقْت عِظامكم جميعاً وأنت في الطليعة ، ... ولكن قل لي أين تركت سفينتك؟ أعَلَى مقْرُبةٍ من هنا أم على الجانب الآخر من الجزيرة ؟

لم يغْلب عن « أوذيس » الحاذق الفَطِن ، مرْمَى هذا الاستفهام ولا فاته أن العمْلاق إنَّما يطْرَح عليه هذا السؤال ليستولى علي الرجّال الذين تركهم يَحْرسُون السفينة ، فسارَعَ إلى الجواب وقال :

– إنّ سفيني ، ويا للأسف ، قد ارتطمت بصخور الشَّاطئ وتحطّمت، وتقاذفت حُطماها الأمواج ، ولقد نـجوت أنا وهؤلاء الرّفاق الذين تراهم معي ، وكانت نـجاتنا من الموت أعجوبة الأعاجيب».

وقبل أن يُتِم « أوذيس » كلامه ، فقزَ العمْلاق الَوحْش قفْزَةً هائلة، وأمْسك بملاَّحيْن أثْنيْن من هؤلاء الملاّحين المساكين وضرب برأسيهما الأرض فتحطَّما ، ثم أقْبلَ يقتطع من جسميهما قطعةً قطعة، ويْزدَردُها واحدة بعد أخرى ، كأنه سبُعٌ جائع يفترس فريسته عُضْواً عُضْواً ، وكان يدُقّ العظْم ، ويسحقه بيديه الضَّخمْتين، ويَبْتلِعه واللحم ، ويشَربُ وراءه في الفَيْنَة بعد الفيْنَة مِلءَ وطابٍ كبيرٍ من اللَّبن .

ولا تَسَلْ عن الذُّعْر الذي استولى على «أوذيس» ورِفاقه ،

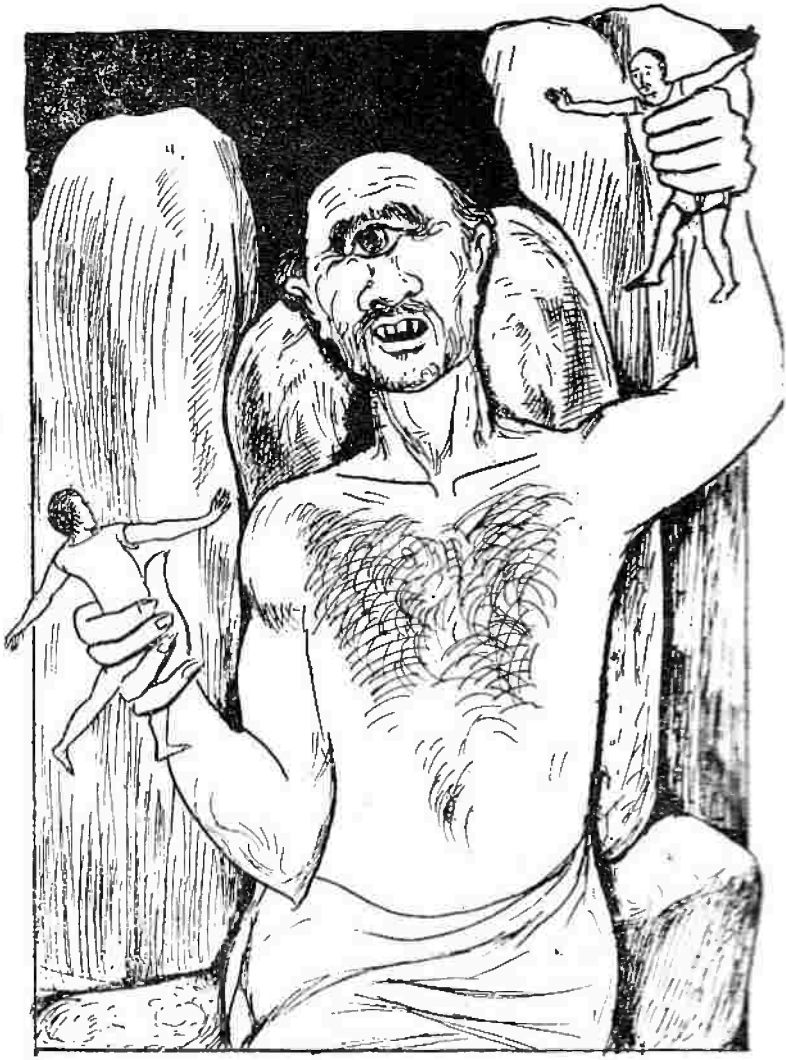

وهم يشَهْدَوُن هذه الوليمة الرَّهيبة الفظيعة ، شهَود الضعَّيف العاجز المتقطّع الأنفاس ، ولم يتنفسَّوا الصُّعَداء إلاَّ بعد أن شَبِع العِمْلاق الَوحْش وارْتَوَى ، وارْتَمَى متمَّدداً على الأرض في وسط كباشه ، فأدركه النعُّاس فنام ، وأخذ يَغِطُّ غطيطاً مُخيفاً .

وحينما أيْقَن « أوذيس » أن العِمْلاق الوَحْش قد غَرِق في سُبات عميق، كان أوّل ما خطر بباله أن يَسْتلَّ سيفهَ ويَغْرِسَه في أحشْاء ذلك الوَحشْ ويزُهْق روحه ، ولكنه أدرك على الفَوْر أن موت العِمْلاق لن ينُقْذِهم من مِحنْتهم ، فأنَّي لهم قوّة هذا المارد ، يحرّكون بها تلك الصخرة الهائلة التي تسُدّ فَتْحَة الكَهْف ؟ فهُمْ إذن مقَضْيٌّ عليهم بالهلاك في ذلك الكَهْف ، كما لو كانوا جِرْذاناً قد وقعَتْ في مصِيْدَة .

وعلى مثل هذا القلق المبرَّح ، قضى « أوذيس » وأصحابه ليَتْلَهَم، وكان كلَّما أمْعَن في التفَّكير لعلَّه يجد مَخُرجاً من مأزَقِهم ، بَدَتْ له فرصةُ الخلاص بعيدةَ المَنال ، بل ضَرْباً من المحُال ، فسَلَّم أمره وأمر رجاله للقدَرَ ، وانتظروا جميعاً إشراقَ الصُّبْح ، وهم على حالٍ يُرْثى لها من العَجْز والحَيْرَة والقَلَق .

ولم تَكدَ خُيُوط الفجر تتسَّرب إلى الكَهْف ، حتى استيقظ « بوليفيموس » من سباته ، فنهضَ وتمطَّى قليلاً ، ثم أوْقدَ النار، وحَلَب نعِاجَه ، وانقضَّ بعد ذلك على ملاَحَيْن اثْنَيْن ، غيَر

عابِئٍ بصَرَخات الذّعرْ التي صَرخَاها ، وكان مصيرهما بين يديه مصيرَ زميليهما التَّاعسَيْن من قبْل .

وانتهى من ازْدراد فريسته ، ومضى إلى الصَّخْرة التي تسُد مدَخْلَ الكَهْف فأزاحهَا ، وأخرَج قُطْعان غَنَمِه وخرج وراءها ، وأعاد الصَّخْرة إلى مكانِها من فَتْحَة الكَهْف في يُسْر وسُهُولة ، كما لو كانت غطاءَ عُلْبَةَ من العُلَب ، ثم جمع قُطْعانه وسار بها إلى المراعي .

وفي هذه الأثناء ، كان « أوذيس » يجُول في أنحاء الكَهْف جولان وَحْشٍ سَجين في قَفَص ، وكان لا يفتأ يفكّر في وسيلةٍ تُنْجيه ورفاقه من البلاء المُحْدِق بهم .

وعلى حينِ فجأة ، وقع نظرُه على غُصْنٍ طويل ضَخْم ، كان العمْلاق قد اقتطعه من شجرة زيتون ، ليكون له عصاً يتوكَّأ عليها ، وكان هذا الغُصْن في طولِه وضَخامته أشبَه بساريَة من سواري السُّفُن التي تلْتَفّ حولها القُلوع ، فلما رآه « أوذيس » حَدَّق فيه طويلاً ، ودار في خلَدَه خاطرٌ جرئ ، فعَمَدَ هو ورجاله إلى ذلك الغُصْن يَبْرُونه ويرقّقُونه ويشحَذُون طَرَفه جاعلين منه سنان ورمُحْ .

وبعد أن فَرغَوا من عملهم هذا على النَّحْو الذي أراده « أوذيس » دون أن يعَرْفوا له غَرضَا ، أخذ « أوذيس » الغُصْن ، وخبَّأه تحت الزّبْل الذي يغُطَيَّ أرض الكَهْف .

فَعَلَ الرّجال ما أنْهَى به « أوذيس » إليهم هم صامتون لا يَدْرُون أيّ هَدَف يسعى زعيمهم إليه من هذا العمل ، ولكنهم لم يتمالكوا عند الفراغ منه إلاّ أن يسألوا « أوذيس » قائلين :

ما أنت صانِعٌ بهذا الغُصْن الذي أصبح مثل الرُّمْح طُولاً وسِناناً .

فقال « أوذيس » :

– أنْوِي أن استخدمه في أمرٍ نرجو منه الخَلاص من مِحْنتنا ... أنْوِي أن أَفْقَأ به عينَ العِمْلاق الوَحش .. وأريد أن أقترع بينكم على أربعة رجال يساعدونني في مهمَّتي ، ويُعِينوني على إنفاذِ سِنان هذا الرُّمْح في عين العِمْلاق .

وأجْرَى « أوذيس » القُرْعة ، فأسفرَتْ عن اختيار أربعة من أقوى رجاله وأشجعهم وأشدّهم مراسا للخطوب ، فشَرَح لهم ، «أوذيس» خطيرَ مهمَّتهم ، وأبان لهم ما يحب عليهم أن يفعلوه عندما يعود العِمْلاق الوَحْش إلى كَهْفِه .

وبقى ذلك النَّفَر من الجنود ، وعلى رأسهم « أوذيس » يترقَّبُون ، طولَ النهار رجوعَ العِمْلاق ، حتى إذا حان وقتُ الأصِيل ، سَمِعُوا ثُغاء الغَنَم يقترب منهم شيئاً فشيئاً ، فعَلِموا أنّ العِمْلاق الوَحْش قد عادَ بها من المراعي ، وسوف يسُوقُها عمَّا قليل إلى حَظائِرها.

وسُرْعانَ ما رأوْا ربَّ الكَهْف يُزيح الصَّخْرة الضَّخْمَة عن

مَدْخَله ، ويَحْدُو قُطْعان الغَنَم إلى داخل الكَهْف ويُعِيد الصخرة إلى مَكانها ، ويَعْمد إلى مِثْل ما قام به ليلةَ أمْسِ في أعمال .

ثم يستدير ، ويا للأسف ، إلى رجلين مِمَّنْ بَقِيَ من رجال وينقَضُّ عليهما انقضاض الصَّواعِق ، وهما يرتجفان من الهَلَع ، ويرْد بهما قتيلَيْن بين يديه ، وينكبّ على افتراسِهما في نَهَم وشَراهة ووحشيَّة ، كما فعل بزملائهما ليلةَ أمْسِ وفي صباح ذلك اليوم .

ولم يفْقِد « أوذيس » في هذه المرّة رِباطَة جأشِه ، على ما في ذلك المشْهَد من شَناعة وفَظاعة ، وعلى ما يُثِيره في قلبه من حُزْن على صاحبَيْه اللذين دَقَّ الوَحْش عِظامَهما ، والْتَهمَ لحمهما ، فاقترب من العِمْلاق وهو يَحْمِل في يده كوباً كبيراً من الخشب مملوءاً بالخمر ، فقدّمه له وقال :

– (تفضَّل غيرَ مأمورة ، واقْبَل مني يا « بوليفيموس » هذا الشَّراب اللذيذ الذي جَلَبَتْهُ معي لأقدّمه إليك عُرْبوناً على ما نلقاه في رِحابِك من كَرَم الضّيافة ، فاشْرَبْه هنيئاً تعلَمْ أيّ صِنْف جَيِّد من صنوف الخمر كانت تحمله سفينتنا) .

تناول العِمْلاق الكوب ، وأفْرَغَه في جَوْفه بجُرْعةٍ واحدة ، ثم أخذ يَمصُّ بطَرَف لسانه شفتيه الغليظتين ، علامة الارتياح والرّضى ، وساغ في حَلْقِه الشَّراب فطلب منه المزيد ، وقال يخاطب « أوذيس » :

– امْلأ لي كُوباً آخر من هذا الرَّحِيق اللَّذيذ ! إنّ كروم هذه البلاد يُعْصَر منها طَيّبُ النّبيذ ، ولكن شرابك هذا سُلافةٌ علْوية جديرة بالآلهة! هاتِها ، وقل لي ما اسْمُك حتى أجْزِيَك عن راحِك بهَدِيَّة ثمينة ! .

فخفَّ « أوذيس » يَمْلأ الكوبَ الفارغ ، وكرَّر ذلك مثْنَى وثُلاثَ ورُباعَ ، حتى لَعِبت الخمر برأس العِمْلاق ، وأفْقَدَه السكر رُشْدَه ، فقال له « أوذيس » :

– (إذا كنت مُصِراً على أن تَعْرِف اسمى ، فإنهم يَدْعُونني « لا أحد) وبهذا الاسم يُنادِيني أبي وأمِّي وجميع أهلي وصحابي .. والآن وقد عرفتَ اسْمِى ، فهل لك أن تُخْبِرني خبرَ الهدِيَّة التي ستُتْحِفُني بها ؟!

فقال العِمْلاق الوَحش :

– (الهديَّة الوحيدة التي استطيع أن أقدّمها لك ، هي أن أجْعَلك آخِرَ من آكُلُهم وأقْضِم عظمهم ولحمهم .

واشتدّت عليه سَوْرةُ السُّكرْ ، فتلعثم لسانه ، وغمغمتْ كلماتُه ، وانطرح إلى الأرض ممدَّداً على ظهره .

وكانت تلك اللحظة هي التي ينتظرها « أوذيس » بذاهِب الصَّبْر، فلمَّا رأى أنّ العملاق قد أصْبَحَ تحت رحْمَتِه ، تناول العاصا الطويلة المسْنُونة ، التي كان قد أعَدَّها وأحْمَى سِنانَها حتى احْمَرّ

وبدأ يلتهب ، فأشار إلى رفقائه أن يقتربوا منه ، وحثَّهم بكلماته وإشاراته على العمل ، نافخاً فيهم روح العزم والتصميم حتى لا تضطَّرب أيديهم هَلَعاً وخَوْفاً ، ثم غَرَزُوا كلّهم في يد واحدة ذلك الوتد الشبيه بالرُّمح في عين العِمْلاق ، وأداروه مَثْنَى وثُلاثَ في مِحْجره الدَّامي .

فزَعَقَ العِمْلاق الوَحْش من شدّة الألم زعْقَةً ارْتَجَّت لها أركان الكَهْف ، ووَثَب واقِفًا على قدمَيْه ، وانْتَزَع الوَتِد من عينه المُضَرَّجَة بالدماء ورماه بعيداً منه ، ثم نادي بصيحاته الوحشية رِفاقه من العمالقة النائمين في كهوفهم ، فما إن يَسمعوا صَرَخاته المدوّية مثل هَزِيم الرَّعْد، حتى يُقْبِلوا إليه من كل حَدَب وصَوْب ، ويَقِفُوا عند الصَّخْرة التي تسُدّ فَتْحَةَ الكَهْف سائلين :

– (ما بِكَ يا « بوليفيموس » ! وماذا أصابك ؟ ولماذا أزعجتنا بصَيْحاتك وقطعت علينا لَذَّة الرُّقاد ؟ هل سُرِقَتْ قُطْعانُك ؟ هل تناولك أحد بأذًى عَنْوَةً أو خِداعًا ؟ فمن يكون اللصّ الذي سرقك ، أو العدوّ الذي آذاك ؟

فأجابهم « بوليفيموس » من أعماق كَهْفه ، وقال بصوتٍ حزين :

– (لا أحد ، لا أحد!) .

فقالت العمالقة :

---

* يقصد «أوذيس» الذى سمى «نفسه لا أحد».

–(ما لنا إذنْ بالأمر يَدان إذا لم يُلْحِق بك السوء أحَد .. فأنت ولا شك فريسة المرض ، اشتدَّت وطْأته عليك فصِحْت ثائراً متألماً . فاصْبر على دائك ، والتزم السَّكينة والهدوء تخفّ بُرَحاؤك . فكلنا عُرْضَة للعذاب ، فتحمَّلْه في صَبْر وأناة).

ثم عادوا إلى منازلهم ، تاركين العِمْلاق الأعْمَى يُعْوِل ألماً ويَهْتَزّ غضباً .

أمَّا « أوذيس » فكان مُغْتَبِط النفس بنجاح حيلته ، ولكن بقى عليه أن يلتمس وسيلةَ الخروج من ذلك الكَهْف الفظيع .

وبينما كان يُجِيل الطَّرْف في زوايا الكَهْف ، مستسلماً إلى التَّفكير العميق بَحثًا وَراءَ الوسيلة المنشودة ، حَطَّ بَصَرُه على قُطْعان الأكباش المتزاحمة في الحظائر ، المنتفخة المَتْن والجوانب بما عليها من صرفٍ كثيف ، فعلمت في ذهنه خاطرة أقَرَّها وعَمَد بعدها إلى الأكباش فربطها ثلاثة ثلاثة ورَبَط كل رفيق من رفقائه تحت بَطْن الكَبْش الأوسط ، واخْتَصَّ نفسه بأضْخَم كَبْشٍ في القطيع وتعلَّق به ، واعتصمت يداه بصُوفه الكثيف ، وانتظر طلوع النهار .

ولاحَتْ تباشير الصَّباح . وأخذت الأكباش تملأ الكَهْف ثُغاءً ، معلنةً عن رغْبَتها في الخروج إلى المرعى ، فمشى العِمْلاق إلى مَدْخَل الكَهْف وهو يتحسَّس طريقه ، وأزاح عنه الصَّخْرة الضَّخْمة التي تسُدُّه حتى يَفْسَح للأكباش في طريق الخروج .

وشاء أن يحولَ دون خروج « أوذيس » ورفاقه ، فجلس عند الفَتْحة، وشرع يتحسَّس كل كَبْش يمرّ به ، ولم يَفْطَن ، وأنَّي له أن يَفْطَن ، أن الرجال الذين أذقوه مُرّ العذاب ، مختبئون تحت الصوف الكثيف من كِباشه .

وفي آخر القطيع ، وَصَل الكَبْش الضَّخْم الذي يحمل « أوذيس » متهادياً في مِشْيتَه ، بَطِئ الخُطَا بما عليه من صوف غزير ، وبمن تحت بَطْنه من حِمْل ثقيل .

فتلمَّس ظهرَ الكَبْش بيديه الغليظتين ، وأجالهما فوقه مُداهِنًا مترفِّقًا، وقال يوجّه إليه الحديث :

– (يا كَبْشِي العزيز ! ماذا جرى لك ؟ وكيف تكون اليوم ذَيْل الأكباش الخارجة إلى المَرْعى وأنت زعيمها ، وقد كنت حتى أمْس أوّلَها خروجًا إلى البراري والحقول ، وأسْرَعَها إلى رَمّ العُشْب النَّضير، وورود الماء الصافي في الجداول والسَّواقي إني لَعَلَى ثِقَة بأنك بقيت في المؤخَّرة ، لتبرهن لي عن غمّك وأسَاك ، ولست أشكّ في أنك حزين كلَّ الحزن على ما أصابني به « لا أحد » اللَّعين ... إنه سَمَل عيني وجعلني أتخبَّط خَبْطَ عشْواء ... آه لو كنت تستطيع الكلام ، لكنتَ أخبرتني أين يختبئ هذا النَّذْل الأثيم ، حتى أهْرَعَ إليه وأحطّم رأسه على صَفَحات الصّخُور مبتهجًا مسروراً !

وكتم « أوذيس » أنفاسَه طوالَ هذا الحديث ، وبقى جامداً

لا يتحرك ، إلى اجتاز الكَبْش عَتَبَة الكَهْف ، ولَحِقَ ببقيَّة القطيع ، وعندما أيقن « أوذيس » أنه أصبح غيرَ قريب من ذلك الغار المنحوس ، تملَّص من كَبْشه ، وفكَّ أرْبطة رفقائه فوثبوا جميعًا واقفين ، وقادوا قطيع الأكباش متَّجهين به إلى سفينتهم ، وكانوا من حينٍ إلى حين يلتفتون إلى الوراء ليتأكَّدوا من أن العِمْلاق الوَحْش لا يتبعهم ولا يتقصَّى أثرَهم ، فظلوا يسيرون سَيْراً حثيثًا حتى بلغوا السفينة ، ولم يَعْتِر سيرهم أيُّ حادث من الحوادث ، فاستقبلهم إخوانهم بصَيْحات الفرح والسّرور ، بعد إذ كانوا قد يئسوا من لقائهم وظنّوهم في الهالكين .

ولما علم هؤلاء الإخوان بالمصير الفظيع الذي أصاب بعض رفاقهم ، أجْهَشُوا بالبكاء وانحدرت من مآقيهم الدُّموع الغِزار .

غير أنّ « أوذيس » لم يترك لهم فرصة الاستسلام إلى البكاء والنحيب ، فصاح فيهم قائلاً :

– (على رِسْلِكُم أيّها الإخوان .. كَفْكِفُوا الدَّمْع وانْشُروا القلاع ، وجدُّوا في الهرب ، فهناك أخطارٌ جسيمة لا تزال تهدّدُنا !

وبعد قليل كانت السفينة تمْخُر عُباب الماء ، وأصواتُ المجاذيف وهي تَضْرب وجهَ المَوْج تتوالى في نَغَم متواتِر متساوِق ، كأنه قطعة من الموسيقى ، وكثيراً ما امتزج به غُناء الكِباش التي استولى عليها «أوذيس» وصَحْبُه ، وكانت الغنيمة التي كلَّفَتْهم الغالي من الأثمان .

وما إنْ تبتعد السفينة من الشاطئ ، وتصبح فوق متناول القذائف من الحجارة وسواها ، لم يَسَعْ « أوذيس » في غير ما حِقْد ولا ضَغِينة إلاّ أن يُنادِي العِمْلاق الوَحْش « بوليفيموس » ويخاطبه بهذه الكلمات :

– (سَماع يا « بوليفيموس » سَماع أيها الوحش الضاري ! إن أعمالك الشنِّيعةَ تقع اليوم مَغَبَّتُها على أَمّ رأسك ، فقد حاك القَدرَ لك جزاء ما قدّمَتْ يداك ... لقد عصفتَ بآداب الضيافة دونَ ما حَياءٍ ولا خَجَل ، بل لم تتورَّعْ عن أن تفترس ضيوفك وتلتهمهم التهامًا .... من أجل هذا عاقبناك بأقلّ ما تستحِقّ من عِقاب ! .

سَمعَ العِمْلاق هذه الكلمات ، وكان جالسًا عند مدخل كهفه ، فوَثَب قائمًا ونَسِيَ آلامه ، وتلمَّس شيئًا يقع تحت يده ، فعثر بصَخْرة كأنها قِمَّة جبل ، فتناولها ورماها في الجهة التي جاءه منها الصوت ، فسقطت في البحر غيرَ بعيد من السفينة ، وأثارت بسقوطها جبالاً من الأمواج كادت تلُفّ السفينة في طيَّاتها ، ولكن يقَظَة « أوذيس » ومهارة الملاّحين تغلَّبتَا على الخطر ، وابتعدتا بالسفينة إلى عُرْض البحر فنجَا ركَّابها من غضب المارد العِمْلاق .

وأراد « أوذيس » وقد أمِنَ من غائلة الموج وغضب العِمْلاق ، أن يُمْعِن في النكاية به وأن ينكّد عليه عيشه ، فرجا منه الملاَّحُون ألاّ يفعل ، ففي مقدور العِمْلاق أن يُصِيب السفينة بحَجَر ، ويكسرها

كما لو كانت قِشْرة جوزة ، فتغرَق بما فيها ومَن فيها ، ويبتلعها اليَمّ ، ولكن رجاءهم ذهب أدْراجَ الرّياح ، فوقف « أوذيس » في مقدّمة السفينة، واستل سيفه ولوّح به الفضاء ، وأخذ ينادي العِمْلاق بأعلى صوته ، ويَكيل له الشَّتائم والسباب ويقول .

– (أيّها العِمْلاق الوَحْش ! لو سألك سائل عن اسم الذي سَمَلَ عينك ، وردّك أعمى ، وحرمك نعمة الْبَصَر ، فقل له إنه « أوذيس » ملك « إيتاكا » !

فَنَاحَ العِمْلاق لدى سَماعه هذا الكلام ، وزفر زَفْرةً طويلة وقال متوعِّداً واعداً .

– (منذ أمدٍ بعيد تنبَّأ لي أحد العَرَّافين بهذا المصير الأليم ، وذكر لي أني سأفْقِد البصر على يد رجل يُسَمَّى « أوذيس » فتوقَّعْت أن التقى ببطل شريف أبِيّ ، ينُاصِبُني الْعَداء وجهاً لوجه في وَضَح النهار ، وينازلني نِزال الأشراف ، فإذا بالفارس النَّبيل الذي توقَّعْتُ أن ألقاه، يَنْحَسِر عن مَسْخ لئيم هو أنت أيّها المخادع القَذِر ، لقد عَمَدْتَ إلى الحيلة ، وهَيَّأْتَ ليَ أسباب السُّكْر جُبْنًا وغَدْراً ، قبل أن تجرؤ على رفع يدك في وجهي ! ولكن أعلم أن أبي « نبتون » يستطيع إذا شاء أن يَرُدَّ لي بصري المفقود ، فارْجعْ إليَّ يا « أوذيس» أرحّبْ بك أجملَ تَرْحاب ، وأغْمُرْك بكَرَم الوِفادَة على ما تقضى به آداب الضيافة ، ولسوف أطلب من أبي أن يَرْعَى مَسيرَك إلى

مملكتك فتصل إليها سالمًا مُعافى .

فلم يُعِرْ « أوذيس » هذه الوعود إلاَّ إذْناً صَمَّاء ، ولا وقعَتْ من نفسه موقِعَ القَبُول فقال :

– (هَيْهاتَ ما تقول ! فلا « نبتون » سوف يَرُدُّ إليك الْبَصَر ولا أنا من الحُمْق والبَلَه بحيثُ أعرّض نفسي لانتقامك) .

فَرفَع العِمَلاق عندئذ عينه الجَوْفاء العَمْياء إلى السمَّاء ، مستنجداً بإله البحر ، مبتهلاً إليه أن ينتقم له من « أوذيس » وقال :

– (أيها الإله العظيم ! إذا أنت قَرّرت أن يعود « أوذيس » إلى بلاده ، فلا أقَلَّ من أن يتعرَّض لما لا يُحْصَى من جسيم الأخطار ... اجْعَلْه يَرْجع إلى قومه فقيراً مُعْدَمًا ، وحيداً من الخُلاّن والأَنصار ، وقدّرْ له أن يعيشَ في موطنه فريسةَ الأوجاع والآلام !

وعَزَّ على العِمْلاق الوَحْش ألاّ يُحَيِّي غريمَه تحيَّة الوَداع ، فالْتَقَط صَخْرةً ضَخْمة ، وقَذَف بها « أوذيس » فكادت تُصيب دَفَّة السَّفينة ، ولكن الحظّ السَّعيد لَطَفَ بها فدفعتها الأمواج التي أثارها سقوطُ الصَّخْرة إلى شاطئ الجزيرة الأولى .

وهناك لَقِيَ « أوذيس » سفُنَه الأخرى فحيَّاه ملاّحوها ، وهَتَفُوا له طويلاً بعد أن كانوا يائسين من رجوعه .

وبعد حين . أعْمِلَت السَّكاكين في بعض خِرْفان العِمْلاق ، فكان للقوم منها وليمةٌ فاخرة ، أكلوا فيها هَنيئًا وشَرِبُوا مَرِئيًا ،

ثم غَلَبَهم التَّعَب والنُّعاس بعد مُضطَّربِهم ، فافترشوا رمال الشَّاطئ يقضُون فيه ليلَتَهم .

وفَتَحوا أعينهم في اليوم التالي على طَلْعَة الفجر ، فَهَبُّوا إلى السُّفن، وحَلُّوا حِبال القُلوع ، وأعَدُّوا المجاذيف الثقيلة ، وسارعوا إلى الهرب من تلك البلاد ، فَرِحين أنَّهم نَـجَوْا فيها من مِيتَةٍ شَنْعاء ، آسفين على أن ذهب ضحيتَّها بعض الإخوان .

وكان « أوذيس » يشاطِرُ رفاقَه فَرْحَتَهم بالنـجاة من مخالب الموت، ولكنه كان يجهل ما تُخَبِّئه له الأقدارُ من أحداث ،وما سوف يُقاسِيه من عَذاب ، قبل أن يَكْحلَ عينيه بِرُؤْية وطنه.

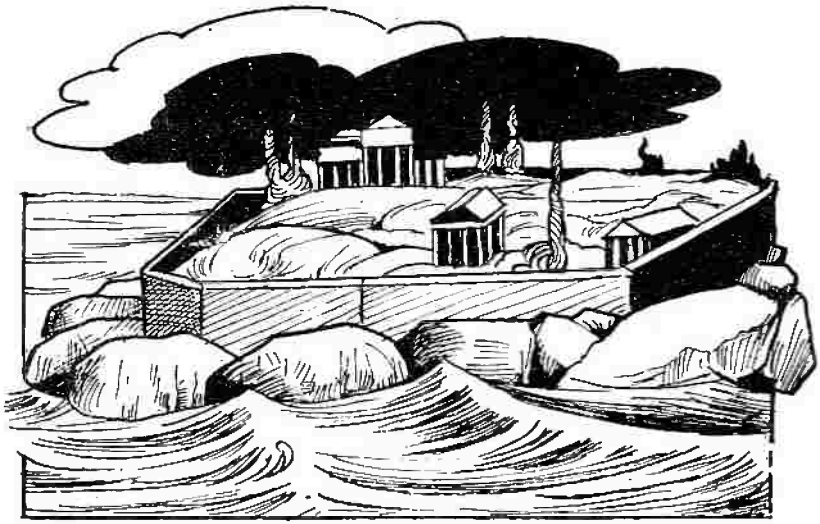

٣

ترك « أوذيس » ورفقاؤه بلاد العمَالقة وراؤهم ، وجَدُّوا في السَّيْر بسُفُنِهم في أعالي البِحار ، حتى وصلوا إلى جزيرةٍ غريبةٍ عائمة على وجه الماء هي مأوى « إيوليوس » إله الرياح ، وله فيها قصور فَخمْة تُحيط بها أسوار عالية من الفولاذ ، ويَسْكُنها هو وأبناؤه وبناته .

نزل « أوذيس » الجزيرة ، فاستقبله فيها إله الرّياح استقبالاً جميلاً ،

وأكرَمَ وفادَته ، وأحاطه بصُنُوف الرّعاية والتَّرْحاب ، فقضى فيها شهراً كاملاً لا ينتهي فيه من وليمة إلاَّ إلى وليمة ، حتى ضاق ذرْعاً بالمآدب والولائم ، ونَفِدَ صَبْرُه ، وطال حنينه إلى وطنه ، فطلب من إله الرّياح أن يُطْلِق سَراحه ، ويَدَعَه يتابع سَيْرَه إلى مملكته ، بعد أن صاغ له عُقودَ الثَّناء والشُّكران .

فاستجاب إله الرياح رَغبته ، وأهْدى له يومَ الوَداع قِرْبَةً من الجلد، مُقْفلةً بقُفْلٍ من الفِضّة ، وقد حبس فيها جميع الرّياح إلاّ النَّسيم العليل .

فوضع « أوذيس » القرْبة في قَعْر سفينته في حَذَر وعِناية ، واستأذن من مُضِيفه في الرّحيل .

وعلى الأثَر أمر إله الرّياح النَّسيمَ العليل بنَفْخ أشْرِعَة السُّفُن ففعَل، وسارت تتهادي آمنةً مطمئنَّة على سَطْح البحر ، تُغِذُّ في السَّيْر إلى «إيتاكا » البعيدة .

وتسلَّم « أوذيس » دَفَّة سفنيته ، وقاد أسطوله إلى الهَدَف الحبيب، وظلّ تسعة أيَّام بلياليها ساهراً على مهمَّتَه ، يأبى أن يَذُوق طَعْمَ الرُّقاد، حتى لاحت له في الأفق جبال « إيتاكا » ، وبدأت الأعين تتميَّزها وتتعرّف إلى أشكالها رُوَيْداً رُوَيْداً ، ثم ما عتّم المتطلِّعون إليها أن رَأوْا الدُّخان يتصاعد من غاباتها ، وتمكنوا من تحديد مَعالم مشاهدها جُمْلَةً وتفصيلاً ، فما هي إلاّ ساعات معدودات حتى يُلْقِيَ

العائدون مراسيهَم في شواطئها .

وكان « أوذيس » قد نال منه التَّعَب كلَّ مَنال ، بعد أن ظلَّ تسع ليال ساهراً لا ينام ، فعَهِدَ في القُلوع إلى مَلاّحيه ، سعيداً بأن يَصِل قريبًا إلى وطنه بعد طول كِفاح ، واستلقى عند سَفْح السَّارية بأخذ نفسه قِسْطاً من الراحة ، فغَلَبَه النُّعاس على أمْرِه فنام نوماً عميقًا .

وانتهز رِفاقُه فرصةَ رُقادِه ، فأقْبَل بعضهم على بعضهم الآخر يتداولون ويتشاورون ، وكلّهم ساخطُ متذمِّر فكان فما قالوه :

– « ها نحن أولاء نعود إلى الوطن بعد ألف عَقَبة وعَقَبة ، ونَرْجع إلى أهلنا فقراء مُدْقِعين ، على حين أن « أوذيس » يحمل معه من «طروادة » ثروةً طائلة ، ثم إن هذه القِرْبة التي أهداها له إله الرّياح ، لابُدَّ مملوءة بالذهب والفضة ! » .

وحَدا بهم الْجَشَع إلى استخراج القرْبة ، فوضعوها على سَطح السَّفينة ، وعالجوها حتى شَقُّوها ، فاندفعت منها على الفَوْر الرّياح الحبيسة هائجةً هادرة ، وهَبَّت معها عاصفَةٌ شديدة كَنَسَت البحر ، ودفعَتْ بالسُّفن إلى مَدىً بعيد كما لو كانت تَدْفَع قِطَعاً من القَشّ .

وهال الملاَّحين أن تَجْرُفَهم الرّياح والعواصف ، وتُقْصِيهم عن مشارف وطَنهم المحبوب ، وكانوا قد عَلّلوا النَّفس بتقبيل تُرابه بعد طول

غياب ، فبَكَوا وانْتَحَبُوا وصَعَّدوا الزَّفَرات .

وتَعالَى هديرُ الأمواج وعَصْفُ الرّياح ، فاستيقظ « أوذيس » من منَامِه، وأدرك هَوْلَ الكارثة ، فخارت قواه ، واستولى عليه يأس شديد وهَمَّ بأن يُلْقِى بنفسه إلى الأمواج ، ويموت مُكَفَّنا بمياه البحر ، ولكنه رَجَع إلى رُشْدِه ، وانتظر انتهاء العاصفة التي دفعت بسفينة ثانيةً إلى جزيرة « إيوليوس » .

ولشَدَّ ما دُهِش إله البحر حين رأى « أوذيس » عائداً إليه وعَرَق الخجل يتصبَّب من جبينه ، فصاح فيه « إيوليوس » ، قائلا :

– (ماذا دهاك ، يا « أوذيس » ؟! لقد كنتُ أعددتُ كل الأسباب في سبيل نـجاح رِحْلتك !

فقال « أوذيس » :

إنه الخطأ الذي ارتكبه هؤلاء الرّفاق الجُهَلاء ! لقد دعاهم الطَّمَع والجَشَع إلى فتح قِرْبة الرّيَاح ، ظَنًّا منهم أنها تحتوي على كَنْزٍ ثمين ، فَأثاروا العواصف التي أعادتنا إليك ، ولكن رُحْمَاك أيها العظيم ، أغِثْنا ثانيةً ، ومَهِّدْ لنا سبيل الرجوع إلى بلادنا سالمين آمنين ! .

فقال إله البحر :

– كلاّ وألف مرّة كلا ! لا شكَّ أنك قد اقترفت كثيراً من

الآثام والجرائم ، حتى أصبح عِقاب الآلهة يُلاحِقك حيثُ تَسير وأنَّى اتَّجَهَتْ، فلا تعتمد عليّ ، وغادِرْ جزيرتي أسْرَع ما تستطيع !

فلم يَسَع «أوذيس» إلاّ أن يُطِيع هذا الأمر الصّادر إليه، فسار بسفنه يَضْرِب في عُرْض البِحار وهو أسيف حزين ، وبدت المجاذيف للملاّحين بطيئةً ثقيلة وهم يَشُقُّون بها الأمواج في عُسْرٍ وصعوبة ، وظَلُّوا على مِثْل هذه الحال ستة أيام كاملة .

وفي اليوم السابع ، وصل ذلك الأسطول إلى جزيرةٍ ذات ميناء جميل، تُحِيط بِفُرْضَتِه العميقة صخورٌ عالية ، ويترقرق فيها الماء هادئاً ساكناً سكونَ ماء البُحَيْرات .

وألْقت السفنُ مراسيها في ذلك الميناء ، إلاّ سفينة « أوذيس » فقد أرساها بعيداً من مدخل الفُرْضَة على مَقْرُبة من صخرة عظيمة ، ثم صعَّد في صخور الميناء ليُشْرِف منها على مُنْبَسط الجزيرة ، ويقف على معالم المكان ، فلَمَح على بُعْد منه أعمدةَ دخانٍ تخرج من بعض السَّاحات، وتتعالَى في أجواز الفضاء فاختار ثلاثةً من رجاله الأشِدَّاء ، وبَعَثَهم مستكشفين مستطلعين .

نَزَل هؤلاءِ الرّجال الثلاثة من أعالي الجبال ، وسلكوا دَرْباً قادهم إلى سَهْلٍ فَسِيح فاجتازه ، ووصلوا بعده إلى مدينة الْتَقَوْا عند أبوابها بفتاةٍ تَسْتَقِي من نَبْع ماءٍ زُلال ، فحَيُّوها وحَيَّتْهم ، ونَفَضَتْ لهم أخبار السُّكان وقالت :

– (إن أبي هو ملك هذه البلاد ، فاتبعوني أوصلكم إلى قصره » .

فتبوعها ولم تساورهم أيَّة رِيبةٍ من أمرها ، ولكنهم كادوا يخرُّون مَغْشِيًّا عليهم من الرُّعْب والاشمئزاز ، عندما قدَّمَتْهم الأميرة إلى أمِّها ، فوجدوها ربَّةً من ربّات الجحيم بَشِعَة المنظر ضخمة الجُسْمان ضخامةَ جبلٍ برأسه .

وما كادت تَلْمَح القادمين إليها ، حتى استدعت زوجها فجاء مسرعاً ، فإذا هو مارِدٌ وَحْش تضطَّرب المفاصِل عند رؤيته ، فما هي إلاّ ثوانٍ حتى انقضّ على أحد الرجال الثلاثة والتهمه حَيًّا .

فارتعدت فرائصُ الرجلين الآخرين ، وأطلقا سيقانهما للرّيح ، متَّجهين إلى السُّفن ، فتبعتهما جماعة من المَرَدَة أقبلت على نِداء ملكها، ثم ملأت بعد قليل رؤوس الجبال المحيطة بالميناء ، وأخذت تُمْطِر السُّفُن بوابل من الصّخور الضّخمة .

وانقلبت تلك الفُرْضَة الوادعة السَّاكنة إلى مُضطَّرب من العواصف والأمواج الثائرة والزَّبَد الجوّال ، تمتزج فيها أشْلاَءُ الموتى بحُطام السُّفُن، وتملأ الفضاء أنَّاتُ المُحْتَضَرين ، وكان المَرَدَة الغِلاظُ الأكباد يُصَوّبون الحجارة وقِطَع الصُّخور إلى أجسام الملاّحين بعد تحطيم سفنهم، ويصطادونهم كما تُصْطاد الأسماك ، ويحملونهم معهم إلى مغاورهم ليكونوا لهم طعاماً شَهِيّاً .

وطاشَ صَواب « أوذيس » لدى هذه المأساة الكبرى ، فضرب بسيفه

الحبل الذي يربط سفينته ،وحَضَّ الملاَّحين على الإسراع في التجذيف فأذعنوا للأمر ، وأصبحوا بعد لَحَظات بعيدين من ذلك الميناء الرهيب الذي هلك فيه جميع إخوانهم ، وسَعِدَ « أوذيس » ومَلاَّحو سفينته بنـجاحهم من الموت ، ولكن قلوبهم كانت تَتَّقِد حزناً وأسىً على رفاقهم الهالكين .

وسارت السفينة أياماً في بحرٍ هادئ وجوٍّ لطيف ، حتى وصلت إلى جزيرة جميلة السَّاحل ، كأنه أُنْشئ لاستقبال تلك السفينة الهابطة إليه ، فَرَسَتْ فيه ، ونَزَل منها الملاّحون وهم على جانبٍ عظيم من الألم والتَّعَب ، واسْتقلوا إلى رِمال الشَّاطئ ، ومكثوا يومين كاملين غائبين عن الوجود . لا يَبْدُر منهم أيُّ دليل على الحياة .

وفي صباح اليوم الثالث ، نَفَضَ « أوذيس » خُمولَه وجُموده ، ومضى يستكشف مجاهل الجزيرة ، فرأى وهو على قِمَّة الجبل ، دُخاناً يتصاعد من بين الأشجار ، واتّفق على أن مرّ على مَقْرُبة منه في تلك اللحظة ، أيَّلٌ جميل خرج من إحدى الغابات ، فرماه بنُشَّابة أصابت منه مَقْتَلاً ، فجرى إليه ورَبَط حوافره بحَبْل من قصب ، وحَمَلَه على كَتِفَيْه ، وعاد به إلى السَّفينة وهو يَنُوء تحت عِبْئه .

وحين رأى رفقاؤه هذا الصَّيْد الثَّمين دبَّت الشجاعة في قلوبهم، وانتعشت صدروهم ، واستردُّوا قواهم بعد الوليمة التي أولموها على شرف ذلك الأيَّل الذَّبيح .

وفي اليوم التالي قَسَم « أوذيس » رجاله قِسْمين ، تَوَلَّى هو قيادة الفريق الأول ، وولَّى « أوريلوخوس » قيادة الفريق الثاني ، ثم اقترعوا على أىّ الفريقين يذهب لاستكشاف البلد ، فكانت المهمة من نصيب الفريق الذي يتزعَّمُه « أوريلخوس » .

تَوغَّل رجال هذا الفريق في الغابات ، ووصلوا بعد قليل إلى منزل جميل مُشَيَّد بالحجارة المَلْساء ، وحَدّثْ عن دهشتهم ولا عجب ، لَمَّا رأوا ذلك المنزل تحرُسُه جماعةٌ من الأسود وجماعة أخرى من الذّئاب المروَّضة .

هجمتْ تلك الوحوش عليهم ، فَهَمُّوا بأن يلوذوا بأذْيال الفِرار ، غير أنها بدلاً من أن تفترسهم أقبلتْ عليهم تُدَاعِبُهم وتداهِنُهم كما لو كانت كلاباً صغيرة .

لم يستأنس القوم بهذه المداعبة ، ولا اطمأنُّوا إلى تلك الوحوش وهي تَثِب حولهم وتلاعبهم ، فساءلوا أنفسهم قائلين ، تُرَى أىّ سِحْر وشَعْوَذَة نحن شهودُها ؟ ثم ما لَبِثُوا أن طَرَقَ مسامعهم صوتٌ عَذْب رقيق فَشَخَصُوا بأبصارهم إلى مَصْدَر الصوت ، فرأوا فتاةً رائعةَ الجمال ذهبية الشعر ، رَسِيلة الجدائل ، تتغنَّى وهي تَنْسج مُصَوَّراً باهر الألوان ، إنها « كركى » السَّاحرة ملكة تلك الجزيرة ، فخفَّتْ إليهم وأسكتت بإشارةٍ منها الأسود والذّئاب ، ودعت هؤلاء الوافدين إلى دخول قصرها .

خَشِيَ « أوريلوخوس » أن يكون وراء تلك الدَّعوة ما وراءها ، فبَقِى وحده واقفاً عند الباب ، في حين لَبَّى رفقاؤُه الدَّعْوة دون أن يساورهم منها شيءٌ من الحَذَر ، ولا توجّسوا منها شراً من الشّرور فدخلوا القصر وجلسوا على المقاعد الْوَثِيرة التي عيّنتها لهم « كركي » ونَعِموا بأطايب ما قُدم لهم من طعام وشَرَاب .

وبينما كانوا منهمكين في تناول الحَلْوَى ، والتلذُّذ بطَعْم العَسَل ، ضربتهم « كركي » بعصاها السِّحْرية . فانقلبوا في الحال إلى خنازير تَظْلَع على أرْبَع ، ويملأ ظهورها شعر حادّ مسنون ، فأخذ كلٌّ منها يتمسَّح بالمقاعد ، ويجري في الغرفة جيئةً وذُهوباً ، ويَصْدُر عن خَطْمه نخيرُ الخنازير ، على أن السِّحْر لم يجرّد هم من خَلَّة التفكير فكان لهم إنسان في جسْم حيوان .

فهَشَّت « كركي » بعصَاها عليهم ، وقادتهم إلى إسطبل الخنازير وحبستهم فيه ، ورمت إليهم بحُزْمَةٍ من لِحاء الأشجار ، يأكلونه بَدَلَ تلك الحَلْوَى المعطَّرة التي كانت قدَّمْتَها لهم من قبل .

وعَبَشَاً انتظر « أوريلوخوس » في هذه الأثناء عَوْدَة رِفاقه ، حتى إذا طال وقوفه عند باب القصر ، ويَئِس من رجوعهم إليه ، غادر مكانه عائداً إلى السفينة ، وكان ألمه شديداً فخانته الكلمات في وصف رِحلتهم الحزينة ، فلما علم « أوذيس » أن أبواب قصر « كركي » قد أُغْلِقَتْ على رِفاقه الأشقياء التَّاعِسين ، تناول سيفه المصنوعَ من الفولاذ ،

والمُزَرْكَش مِقْبَضُه بنجوم من الفضة ، وأخذ معه قوسه ونَشّابه ، وطلب من « أوريلخوس » أن يقوده إلى تلك السَّاحرة ، فارتعدت فرائص «أوريلوخوس » ، وارتمى على قَدَميْ سيّده وقال :

– (اذهَبْ أنت إذا شئت ، ولئن ذهبتَ لتسعَيَنَّ إلى حَتْفِك ، فاتركني هنا ، واعْلَمْ أن هلاكك لن يُنْقِذ أصحابنا المساكين ! » .

فقال له « أوذيس » في تأفُّف واحتقار :

– (اِبْقَ أنت هنا ، وكُلْ واشْرَب ونَمْ هادئاً وادِعاً ، أمَّا أنا فذاهِبٌ وحدي ! .

ومضى وحده يَضْرِب في مناكب الحقول والغابات ، ويُغِذُّ السَّيْرَ في اتِّجاه القصر المسحور .

ولَقِيَ في طريقه شابًّا جميلاً يحمِلُ عصاً قصيرة من الذَّهب ... إنه الإله (هرمس » أرسلته الآلهة إليه : وسَمِعَه يقول له :

– (إن « كركي » الشِّرّيرة قد سَحَرتْ رفاقَك ومَسَخَتْهُم خنازير ، فحاذِرْ واعلَمْ أنَّها سَتُقَدّم لك حَلْوَى مسْحُورة ، فإذا أكلت منها ما شاء لك النَّهَمُ أن تأكل ، فسوف تَمَسُّك بعَصاها السِّحريَّة ، وتُحِيلك إلى خِنْزِير ، وتُرْسلك تَنْخُرُ في إسْطَبْل الخنازير ، ولكن لا تَخْشَ بأساً فأنا كفيلٌ بأن أُنْقِذك من شَرّها ..)

ثم أعطى « أوذيس » نَبْتَةً غريبة سوداء السَّاق ، بيضاء الزَّهَر ،

سَمَّاها باسم « مولي » وقال :

– (خُذْ هذه النَّبْتَة واحملها معك فإنها ستحميك من سِحْر «كركي» الأسود ، فإذا ضربتك « كركي » بعَصاها السِّحْريَّة ، فاسْتَلَّ سيفَك واهْجُم عليها كَمَنْ يُريد قتلها ، يَسْتَوْلِ عليها الفَزَع ، فتنقلب بين يديك رقيقةَ الطَّبْع لطيفةَ المَعْشَر ، ولكن احْرِصْ على أن تجعلها تُقْسِم علناً أن لن تَنْصبِ لك فخًّا جديداً ، ولن تأخُذَك بِحِبالة أية مَكِيدة كانت) .

وغاب « هرمس » بعد بَذْل هذه النصائح ، وتوارى وراء الأشجار ، وتابع « أوذيس » سيرة إلى قصر الملكة السَّاحرة .

بَلَغَ « أوذيس » القصر ، ووقف ببابه ، ونادي بأعْلَى صوته أصحابه ، ففُتِح البابُ على الفَوْر ، وبَدَتْ عند عَتَبَتِه ، « كركي » الحسناء الشِّرِّيرة ، فرحَّبَتْ « بأوذيس » وأدخلته القصر ، وعَيَّنَتْ له مَقْعَداً مُزْخْرَفاً بنقوشٍ من الفضّة يجلسُ عليه ، ثم قدَّمَت له كوباً من الذهب الخالص مملوءاً بخَمْرٍ مسحورة ، ثم مَسَّتْه بعصاها القصيرة وقالت :

– (أذهب الآن إلى إسْطَبْل الخنازير ، واجتمعْ فيه بإخوانك) .

فاسْتَلَّ « أوذيس » سيفه عَمَلاً بنصيحة « هرمس » ، وهجم على «كركي » كمن يُريد أن يقتلها ، فاسْتَحْوَذَ الخوف على قلب « كركي » وارْتَمَت على قَدَمي « أوذيس » وقالت :

– (إنك ولا شكَّ البطل الذي بشَّرَتْني الآلهة بقدومه .. إنك « أوذيس » الذي يستطيع دون الناس أجمعين ، أن يقاوم سِحْري وإغرائي ، فأعِدْ سيفك إلى قِرابه ، ولنكنْ صديقين حميمن) .

فقال لها « أوذيس » :

– (كيف تريدين أن نكون صديقين حميمين ، ورِفاقي محبوسون في إسطبل خنازيرك) .

ثم حرص « أوذيس » على أن تجعل « كركي » تَعِدُ بإطلاق سَرَاح رفقائه ، وتضمن لهم جميعاً عَوْداً حميداً أميناً إلى سفينتهم ، فأغْمَد « أوذيس » عندئذ سيفه ، وأنهض « كركي » من مُنْطَرَحِها ، فنهضت ونادت وصِيفاتها ، فأقْبَلْنَ مُسْرعات ، وشرَعْن يُعْدِدْن المائدة لوليمةٍ فاخرة تولُّها ربَّتهنّ .

كذلك مَضَيْن يُعْدِدْن « لِأوذيس » حَمَّاماً يفوحُ في جوانبه العِطْر والغَالِية ، ثم ألْبَسْنَه بعده رِداءً مزركَشاً ومِعْطَفاً جميلاً ، وجَلَبْنَ له ماءً ممزوجاً بالطِّيب ليَغْسِل به يديه .

فجلس على مقعدٍ منقوشٍ بالفضّة ، وأخذت واحدة منهن تصُبُّ على يديه الماء منسكباً من إبريق من الذهب .

ودُعِيَ « أوذيس » إلى المائدة وقد حَفَلتْ بالأطايب واللَّذائذ ، فأعْرَضَ عنها ولم يتناول منها شيئاً ، فدُهِشت « كركي » وقالت له :

– (مالي أراك حزيناً ساكتاً ؟ ومالي أراك مُعْرِضاً عن الطّعام ؟

ألا تزال تَخْشَى سِحْري الأسود بعد إذْ حلفتُ لك أن لن أمسَّك بسوء ولا أذى ؟!

فقال لها « اوذيس » .

– (كيف تَطيب لي المباهج ، وكيف أُقْدم على الطَّعام والشَّراب ، وصِحابي ما زالوا في قَبْضَة يدك وتحت رحمتك ، فأطْلِقي أوّلاً سَراحهم أثِق أنك ستُنْجِزين جميع وعودك الأخرى) .

فخفَّت « كركي » إلى إسْطَبل الخنازير ، وفتحت الباب وأخرجت رفاق « أوذيس » ثم مَسَّتْهُم بعصاها السِّحْريّة ، فسقط الشعر من ظهورهم، ووقف كلٌّ منهم على قدميه ، واستحال خَطْمُه إلى وجه إنسان ، فما كاد هؤلاء الرّفاق ، يَرَوْن « أوذيس » حتى هُرعُوا إليه والفرحُ يملأ صدورهم ، وأقبلوا يُحَيُّونه ويعانقونه رجالاً أشِدّاءَ حِسَانَ السَّمْت كالعَهْد بهم قبل مَسْخِهم .

شَهِدت « كركي » كيف أعْرَبَ هؤلاء الرّجال عن فرحهم بِلِقَاء رئيسهم ، فأثَّرَ في فؤادها المشْهَد ، ولم تمالك عن أن تسكب العَبَرات .

وشاءت إن تكون البهجة شاملةً تامَّة ، فطلبت من « أوذيس » أن يذهب إلى السفينة ، ويعود مصطحباً بقيَّة الرّفاق الذين ظلُّوا فيها ، فجرى « أوذيس » إلى الشاطئ بخطى خفيفة ، فلم يكد رفاقه يَرَوْنَه عائداً إليهم سليماً معافىً ، حتى حَيُّوا عودته بالهُتاف والتَّهليل ، وطغت على قلوبهم فَرْحة ما كانت لِتَطْغَى بأوفرَ لو كانوا عادوا إلى الوطن .

وبعد أن هدأت مشاعرهم الفائزة قال لهم ، « أوذيس » .

– (اسْحَبُوا السفينة حتى الشاطئ ، وأفْرِغُوا حمولتها ، وضَعوها في هذه المغارة التي تَرَوْنها أمامكم ، وتَعَالَوْا معي ... إن إخوانكم لِيَنْعَمُون الآن في قصر « كركي » بكل ما لَذَّ وطاب من شَهِيَّ المآكل وسائغ الشَّراب ، فهَلُمُّوا نشاركهم في مأدُبتهم .

فأطع الملاحون دعوة « أوذيس » ، وهمُّوا بأن يطيروا إلى القصر فرحين مغتبطين ، فاستوقفهم « أويلوخوس» وحاول أن يمنَعهم من ذلك العمل الطَّائش وقال لهم :

– (من الجنون المُطْبَق أن نستمع لهذا الجرئ الجسور ! هل نسيم أنه هو الذي رماكم بين يدي العِمْلاق الوحش ؟ فلئن تبعتموه إلى قصر « كركي » لتُحوّلَنَّكم هذه الساحرة إلى خنازير أو ذئاب أو أسود تَحْرُس قصرها) .

اغتاظ « أوذيس » من هذا الخطاب ، وأخذته سَوْرَة الغضب ، فلو لم يَحُل الملاّحون بينه وبين « أوريلوخوس » متشفِّعين له لكان دَقَّ عُنُقه بضربة سيف واحدة ، ثم قالوا :

– (اتركه يحرس السفينة عِقاباً له ، وسِرْ بنا في الحال إلى قصر السِّحْر والعجائب) .

وخَجِل « أوريلوخوس » من نفسه ، فسار معهم مُطأطِئ الرأس إلى قصر « كركي » .

وسارعت وصيفات الملكة عند وصولها إلى أن يُعْدِدْن لهم حمَّامات ساخنة مُعَطَّرة ، وأخرجن لهم بعد ذلك من صناديق جميلةٍ مصنوعة من خشب الأرْز ، ثيابًا ثمينة مُطرَّزَة بالذهب ، لبِسُوها وهم في أوفر نعمة ومُتْعة ، ثم جلس المدعوُّون جميعًا إلى المائدة ، وفَتَكوا بما عليها من طَيِّبات فَتْكًا ذريعًا .

* * *

مَرَّ على القوم عامٌ كامل وهم رافلون بِحُلَل النَّعيم ، مُخْلِدُون إلى الراحة الكبرى حتى ضاق رفقاء « أوذيس » بهذا الفَراغ الذي يعيشون فيه ، وسَئِموا من حياتهم الرَّتيبة وإن ظلَّلَتْهم بِوارِف المباهج فذهبوا يَلْقوْن رئيسهم ويقولون له :

– (أتَنْوِي البقاء أبَدَ العمر في هذا المكان ؟ أفما آن لنا أن نعود إلى ديارنا وطننا ؟

وفي مساء ذلك اليوم ، أنْهَى « أوذيس » إلى « كركي » بأن رِفاقه قد استَبدَّ بهم الحَنين إلى بلادهم ، وذكَّرها بما قطعتْ لهم من وعود في هذا السبيل ، فقالت له السَّاحرة الحَسْناء :

– (لكَ ما تريد ، فإني لن أستبقيك هنا ساعة واحدة إذا كنت لا تَرْغَب في الْبَقاء) .

ثم زوَّدَتْه بما يجب أن يَعْلَمَه في رِحْلته ، وأضافت قائلة :

– (على رِفاقك أن يَتَّبِعُوا نُصْحِي وإرشادي وإلاَّ عَرَّضوا

أنفسهم لِلْهَلاك ، أمَّا أنت يا « أوذيس » فالموت يَحُوم حولك ، فإن نـجوتَ منه فلن تدخل بلدك إلاَّ بعد سِلْسِلة من الكوارث ، فكن حَذراً يَقِظًا ، واستوعِبْ ما أدْ ِلي به إليك من نُصْح واتَّبِعْه بحذافيره) .

وما هو أن يَطْلِي الفجر قِمَم الأشجار في تلك الجزيرة المسحورة بِطِلاء الورد والذهب ، حتى استَقَلَّ « أوذيس » ورِفاقِه السفينة ، والغِبْطةُ تُقِيمهم وتُقْعِدهم ، وراحوا يضربون بمجاذيفهم صَفَحات الموج الأزرق ، ولكن في غير عَناء ولا مشقّة ، ذلك أن « كركي » بعثَتْ إليهم بالنسيم العليل ينفخ قلوعَهم ، بالريح الرُّخاء ترافق سفينتهم ، فرَجْت تتهادَى في رِفْق ودَعَه فوق بحر من اللاَّزَوَرْد .

سارت السفينة الجميلة بأشْرِعتها البيض الشبيهة بأجنحة الطيور، وبقيت « كركي » ذات الجدائل الذهبية تُشَيِّعها بنظراتها فَتْرَة من الزمن، ثم عادت في خُطًى متمهِّلة إلى قصرها المتواري في كثيف الغابات .

٤

كان على سفينة « أوذيس » أن تمرّ في رِحْلتها على مَقْرُبَة من جزيرة تَسْكنها عرائس البحر الحِسان .

ولئن كانت وجوه هؤلاء العرائس تمتاز بالجمال السَّاحر ، إن أصواتهنّ الحُلْوة العَذْبة لأشَدُّ سِحْراً وأجْمَلُ وَقْعًا في القلوب .

وحياة هؤلاءِ الحِسان تفيض بهجةً وحُبوراً ، فهن يقضينها بين

المروج الخُضْر المزدانة بملوّن الأزهار ، والمنثورة في جوانب الجزيرة ويَشْغَلْن أنفسهنّ بالغِناء والتَّغْريد وتَرْجيع شَجِيّ الأنغام ، والويل للملاّحين الذين يسمعون ألحانَهنّ الجميلة ، فإنهم لا يملكون إلا التوقُّف عن متابعة رحلتهم ، والنزول إلي اليابسة لِيَعبُّوا بالأسْماع والقلوب من فَيْض ذلك الغِناء السَّاحر ، تُرَجِّعُه أولئك الفاتنات الماكرات، غير أنهم ويا للأسف ، لا تكاد أقدامهم تطأ أرض الشَّاطئ ، حتى تستولي عليهم عرائس البحر ، وتذيقهم كأسَ المَنُون ، وتنثر عِظامهم البِيض فوق المروج والشواطئ .

ذلك هو مَصِير كلّ مَلاّح مُسْتَهْتر يتْرك جانبَ الحذَر ، ويستسلم إلى مجالي السحر والفِتْنة ، وإنه لَبِئْس المَصِير .

ولقد حرصت « كركي » كلَّ الحِرْص على أن تحذّر « أوذيس » من الخطر العظيم الذي يتهدَّده ، وكانت قد أوصَتْه بأن يزيد من سرعة سفينته إذا ما مرّ بِنطاق تلك الجزيرة المخيفة

وبقيت سفينة « أوذيس » تسير الهُوَيْنا فوق سطح البحر ، ودفعها الريح الرُّخاء حتى شاء سوءُ حظِّه أن تَسْكُن الرّيح فجأة عندما اقترب من تلك الجزيرة ، فهَبَّ يأمر رجاله بِطَيِّ القُلوع ، ثم أخذ قطعةً كبيرة من الشَّمْع ولَيَّنها بيديه القوّيتين ، وسَدَّ بها آذان مَلاّحيه سَدًّا مُحْكَمًا ، وطلب إليهم بعد ذلك أن يربطوه إلى السَّارية الكبرى وأوصاهم ألاّ يفكّوه منها لأيّ سبب من الأسباب ثم أمرهم أن يُمْسِكوا

بالمجاذيف ، ويُعْمِلوها في جوانب الماء بكلّ ما أوتُوا من قوة ففعلوا واصطخب الموج تحت الضَّرَبات القويَّة تنهال عليه في إيقاع رتَيب، وازدحم الزَّبَد الأبيض حول مُقَدّم السفينة وهي تشُقُّ صدر الماء ، وأخذت جزيرة العرائس تَكْبَر وتَكْبَر على مَدِّ البَصَر ، حتى حاذت السفينة شواطئها .

وانطلقت عندئذ أصوات العرائس عَبْرَ النسِيم العليل ، تحمل إلى ركاب السفينة الأغاني العذاب ، وقد أعرَبتْ بها أولئك الجميلات الخبيثات ، عن أمانيهن قائلات :

– (اقتربْ منا يا « أوذيس » العظيم .. قِفْ سفينتك الجميلة قليلاً، واسْمَع أناشيدنا الشَّجِيَّة ، فما من ملامح مَرَّ على مَقْرُبَةٍ من جزيرتنا إلا قَطَعَ سير رحلته ، ووقف يملأ سَمْعه وفؤادَه من ألحاننَا الحُلْوة... إنها أحْلَى من عسل النحل الأشقر ... إنها تُطْرِب جوانحك وتُفْعِمها بجهةً تتجدَّد كلما ذكرتَها .. فاستمعْ لنا فإننا سنتعنَّي بأعمالك الباهرة ، وسنشدو مُشِيدات بانتصاراتك المَجيدة في بلاد «طروادة».. ستكشف لك كلماتُنا حُجُبَ الغَيْب ، وستعرف من أغانينا ما يخبِّئه لك المستقبَل، فتعال إلينا واقتربْ منَّا يا «أوذيس » الشجاع ! .

لم يستطع الملاّحون أن يسمعوا شيئًا من هذه الأنغام الرقيقة العَذْبة، فقد كانت آذانهم مسدود بقِطع الشمع ، ولكن « أوذيس » سَمِعها

وطرب لها وأثارت في نفسه عواملَ الإغراء ، فأخذ يتململ في حِباله مضطَّربًا يائسًا ، وحاول أن يُفْهِم رِفاقه بإشارات من رأسه ، أن يفكُّوا رِباطه ، ولكن ذهبتْ محاولته أدْراج الرّياح فما فَهِمُوه ولا استجابوا لما يُريد ، بل إنهم لما رأوْه يقوم بحركاتٍ عنيفة ، خَشُوا على رِباطه أن ينقطع ، فزادوه توثيقًا بحبل جديد .

واستمرّت العرائس يُغَنِّين ويُنْشِدْن الأناشيد ، وقد عزّ عليهنّ أن يُغْلَبن لأوّل مرّة في معركة الإغراء ، واستمرت السفينة كذلك ، تجري هارعة مسرة حتى ابتعدت من الجزيرة ، ولفّها الضَّباب في غَلائله .

وعَمَدَ الملاّحون عندئذ إلى انتزاع قِطَع الشَّمْع من آذانهم وجَرَوْا إلى «أوذيس» يَحُلُّون وِثاقه ، فاستقبلهم راضيًا عن تمسُّكهم بأوامره ونواهيه ، مغتبطًا بنَجاته من سلطان عرائس البحر من سحرهِنَّ القتَّال .

وعلى حين فجأة طَرَقَ مسامِعَهم وأصَمَّها دويٌّ يختلف عن أناشيد عرائس البحر ، فتذكَّرَ « أوذيس » نُبوءات « كركي » وذكَرَ أنَّها قالت له فيما قالت : (ستمُرُّ بعدئذ على مَقْرُبَة من الصُّخور التائهة ، وسترى الأمواج العالية الهائجة تتكسّر على جَلامِيد الشّواطئ في حين تَتَعالَى سُحُب الضَّباب ، فتُغَطِّي وجهَ السماء ، وتَهْلك في مَسِيرها أسْرابُ الطيور ، وسَتَرى كذلك عُباب البحر يَزْخَرُ

بحُطام السُّفُن وجُثَث الملاّحين الذين لَقُوا حَتْفَهم في هذه الناحية المشؤومة) وتبيَّن « أوذيس » مصدر ذلك الدَّوىّ الهائل الذي سَمِعه ، فإذا هو دَوِيُّ الصُّخور العائمة المتلاطمة ، وزمجرة الأمواج ترفع معها غمائمُ الضَّباب الكثيف إلى السماء ، وإذا هذا وذاك يُسْفِر عنه قَصْفٌ مثل قَصْف الرُّعود ، ففَهِمَ أنه قد وصل إلى الصُّخور التَّائهة التي تُثِير الذُّعْر والرُّعْب في قلوب الملاّحين.

وكان المشْهَد مُخِيفًا مُرْعِبًا ، فتَرَك رِفاق « أوذيس » مجاذيفَهم وانكمشوا في مَقاعِدهم ، والخوفُ يملأ صدورَهم ، فهَبَّ رئيسهم يَبُثّ فيهم روحَ الشجاعة ويقول :

– (لقد تحمَّلْنا حتى اليوم ما لايُطاق من الشَّدائد والكوارث ، وسوف نَخْرج أيضًا من هذه المِحْنة الطَّارئة إذا أرْهَفْتُهم إلىّ السَّمْع وأطمعتوني طاعةً عَمْياء ، خُذُوا المجاذيف الطويلة ، واضْرِبُوا بها الماء في قوّة وشجاعة ، وأنت يا مُدِير الدَّفَّة ، تجنَّب الصخور واندفاع الأمواج ، وأمْرُقْ بالسفينة في فِطْنة وحَذَر من بين مضايق الصُّخور ، فإذا وَعَيْتُم يا صِاحبي ما أقول واستوعبتموه وعملتم به ، نَـجَوْنا من هذا الخطر الجديد المُحْدِق بنا ! .

أصْغى الملاّحون إلى هذا الكلام ، فعادت الثّقة إلى قلوبهم، وتبدَّدَت مخاوِفُهم ، وأقْدَمُوا على العمَل في هَدْي ما أدْلَى به الرئيس من أوامر ، فما هي إلا فَتْرَة من الزمن ، حتى كانوا تجاوزا

الصّخور التَّائهة وتَنَفَّسُوا الصُّعَداء .

ولكن سُرْعان ما تَلاشَت فرحتُهم عندما فاجأتهم عناصرُ خطرٍ جديدة تهدّدهم ، وتَحْشَدُ منهم العزائم والهِمَم ، فقد لاحت لهم في الأفُق صرختان هائلتان ، ترفع إحداهما فوق عالية الأمواج الهادرة ، وتكاد تَنْطَح السماء بقِمَّتها المسنونة الدّاكنة ، وتبدو لِلْعِيان صخرةً مَلْساءَ وَعْرَة المسْلَك ، لا يستطيع التَّصْعيدَ فيها أحدٌ من البشر .

ولو أوتى عشرين قَدَمًا وعشرين يداً ، وكان رأس قمَّتها تغطّية غَمامَةٌ سوداء ، فلا يلوح للنَّاظرين حتى في أيام الصَّيْف الجميلة .

وكان في سَفْح تلك الصَّخْرة كهفٌ عَمِيق هو مَأوَى الوَحْش «سكيلا» .

وكان لهذا الوَحْش الشنَّيع الكريه ، عشرة مخالب ، وستَّةُ رؤوس في كلّ منها فَكٌّ فوق فكٍّ فوق فكٍّ ، وكان هو مُتَوارٍ في كَهْفه المظْلم ، لا يَفْتَأ ليلَ نَهار ، يَنْبَح نِبَاحَ وَحْشِيِّ الكلاب .

فإذا شَعَر بمرور فريسة من الفرائس أكلبَ بَحْرٍ كانت أم حُوتاً من الحِيتان ، وأدْرَك أنهاً في متناوَله ، خرج من الكَهْف ، ومَدَّد أعناقَه الستَّة المختلفة طُولاً وقِصَراً وفَغَر أشْداقَه المُخِيفة ، وتلقَّف بها الفريسة .

والويل للملاّحين الغافلين إذا غامروا بأنفسهم ، واجتازوا هذه الناحية ، فسوف يكونون لُقْمةً سائِغَة لهذا الوَحْش الفظيع ، فإنَّه

ينقضّ عليهم برؤوسه الستَّة ، ويَخْطَف كلُّ رأس منه مَلاَّحاً ويَدَقّ عِظامه تحت الصفوف الثلاثة من أنيابه الحادّة ، ثم يزدرده لحماً وعَظْمًا ، ويكون للوحوش من تلك الفرائس الستّ وليمةٌ فاخرة .

أمَّا الصَّخْرة الثانية ، فكانت تَشْمَخ بأنفها على الجانب الآخر من المَضِيق ، وقد بسقت في سَفْحِها شجرة تين خضراء الغصون والورق ، وتلبَّدَ في أعماق الصخرة وحش آخر هو « خاريبديس » وكان هذا الوحش يستنشق ماء البحر ثلاثَ مَرّات في اليوم ، ثم يُخْرِجُه في سيلٍ جارف يشبه هُوج الزَّوابع .

فإذا مَرَّت سفينة من السفن في الوقت الذي يستنشق فيه الوحش ماء البحر ، غارت في هوّة من البحر الخِضَمّ ، وتمزَّقَت شرَّ تمزُّق ، ولفظ الموج المنحسِر عنها آكامَ البقايا والحُطام .

ولئن كان « أوذيس » قد حدّث رفقاءه عن الأخطار الجسيمة التي ستُعَرّضهم لها الصخور التَّائهة ، إنه لم يجْرُؤ على أن يحدّثهم بشيء من أمر الوحش « سكيلا » ولا الوحش « خاريبديس » خَشْية أن يُفْقِدهم الرُّعْب شجاعتهم ورِبَاطَة جَأشِهم .

ودَنَت السَّفينة من مَخْبَأ « سيكلا » وكات « أوذيس » قد لَبِس لأْمَتَه ، وتَقَلَّد سيفه ، وأمسَك بمختلف عُدَد القتال ، وبد شاكّ السلاح من رأسه إلى أخمص قدميه كأنه ساع إلى حَوْمَة الهَيْجاء .

فأخذ يُجيل الطَّرْف في مُتَباين الجوانب والأنحاء ، لعَلّ بَصَره يَقَع على الوَحْش « سكيلا » فلم يَعْثُرْ له على أثَر ذلك أن الوَحْش كان متوارياً في ظَلام كَهْفه فاغْتَبَط « أوذيس » أيَّما اغْتباط بالنَّجاة من الخَطَر ، أمر الملاّحين بمضاعفة الجهْد في التَّجْذيف ، ولم تَكد السفينة تجاوز الصَّخْرة المميتة حتى برزَتْ لها فجأةً من الكهف ستَّةُ رؤوس شنيعة فاغرة الأشداق ، انقضَّت في طَرْفَة عَيْن على السفينة وأطْبَقَت على ستَّة ملاّحين ، فحاول هؤلاء المساكين التَّاعِسون أن يتخلَّصُوا على غير جَدْوَى من أنياب خاطِفهم وأخذوا يملأون الفضاء بصياح الرُّعْب والألم، فما نفعت محاولتهم ، ولا أجْدَي صُراخهم ، فقد عاد بهم الوحش إلى أعماق كَهْفه ، والْتَهَمهم في شَرَه ونَهَم .

امْتُقِعت وجوه زملائهم من شدّة الرُّعْب ، فانكَبُّوا على التجذيف في حمَّى عارمة لعلَّهم يَنْجُون إذا استطاعوا من هَجْمةٍ ثانية يقوم بها الوحش ، فاستهدفوا في سَيْرهم السريع للزّوابع ، التي يُثيرها الوحش « خاربيديس » فتجاوزها ونَجَوْا من أخطارها ، غير أنهم هَيْهات أن يَنْسَوْا زملاءهم الذي قَدّرَ لهم نحْس الطَّالع أن يكونوا فريسة للوحش «سكيلا » .

اجتازت السفينة ذلك الجحيم ، وخَلَّف أصحابها عنده ما كان قد انْتابَهم من قَلَق وقُنوط ، ومن ذُعْر وحُزْن ، ولشَدَّ ما ابتهج

« أوذيس » ورفاقه حينما لاحت لهم ، بعدَ طُولِ المسير ، جزيرُة باسمةٌ تَرْعَى فيها قُطْعانٌ من الغَنَم ، فلما اقتربت السفينة من الجزيرة وسمع « أوذيس » ثُغاء الغَنَم ، تذكّر وصايا « كركي » ، وتذكّر أنها قالت له : ستصل بعد الصَّخْرتين المُمِيتَتين إلى جزيرةٍ جميلة تَرْعَى فيها قُطْعان مقدّسة هي ملْك إله الشمس ، فحَذارِ أن تمسَّها بسوء ، وإلاّ جلَبْتَ على رِفاقك الأخطار والمهالك .

ذَكَر « أوذيس » هذا التَّحْذير فراح يتوسَّل إلي رُفقائه ألاّ يَنْزِلوا بهذه الجزيرة ، ثم مَضَى يقول لهم :

– (لِنَبْتَعِدْ منها ما شاء لنا الابتْعاد ، ولنختَرْ مكانًا آخرَ نَنْزِل به ، فالكوارث القادحة تنتظرنا في هذه الجزيرة .

فقاطعه « أوريلوخوس » قائلاً :

– (آه ! ما أقْوَى أعْصابَك أيّها الرجل ! لكأنها قُدَّت من جَلْمَدِ الصّخرِ أو قاسِي الحديد ! .. أنْظُرْ إلى مَلاّحِيك حَمَلَةِ المجاذيف تَجِدْ سواعدهم كليلةً مُتْعَبة ، فَضْلاً عن أن الليل قد بدأ يَهْبِط ، والبحار غير مأمونة في حَلَك الظَّلام ، فَدَعْنا نأخذ قِسْطًا من الراحة في هذه الجزيرة ، وغداً نَنْشُر القُلوع ونسْلُك طريق الرّجوع إلى الوطن الغالي .

فصفَّقَ الملاّحون لهذا الاقتراح ، وكلُّهم مُتْعَب خائر القوى ، فاضطرَّ « أوذيس » أن يَنْزِل عند رَغَباتهم فقال :

– (لكم ما أردتم ، ولكن عِدُوني ألا تمَسُّوا عُجول إله الشمس ، وأن تكتفوا بما عندنا في السفينة من طعام ، فلئن عَصَيْتُم أمْرِي لَتَهْبِطَنَّ على رؤوسكم أفْدَحُ المصائب .

فوَعَده الملاّحون خيراً ، وقطعوا على أنفسهم العَهْد أن يَرْعَوْا وصيَّته ، فقاد « أوذيس » عندئذ السفينة إلى خليج أمين يتفجَّر على مَقْرُبة من صدره يَنْبوع ماء زُلال ، فجَرَّ الملاّحون السفينة حتى رمال الشاطئ ، واستسلموا فيه إلى الراحة والاستجمام ، وقَضَوْا ليلتَهم يتحدّثون عن رِفاقهم الذين التهمهم الوحش (سكيلا) ، « ويَرْثُون لحالهم ، حتى دَبّ النُّعاس إلى أجْفانهم ، وقَطَعَ سلسلة أحادِيثهم الحزينة .

وفي أثناء الليل ، هبَّت عاصفة هَوْجاء أثارت في البحر جِبالاً من الأمواج ، تعذَّرَ معها الرحيل في الصباح ، واستمرّت الحال على هذا المنوال مدة شهر كامل ، عاش الملاّحون فيه سُجَناء تلك الجزيرة لا يستطيعون عنها زِيالاً .

ومضت الأيام الأولى على ما يشتهي هؤلاءِ الرجال ، فالمُؤَن في السفينة كانت غزيرةً وافرة ، طعم منها « أوذيس » ورفاقه ، وقضوا تلك الأيام بين هنئ عيش ونعيم رقاد ، حتى نقصت مواردهم ، ونفدت مؤنهم ، فهبُّوا يلتمسون الزّاد والطَّعام من أيّ سبيل كان ، فعُني فريق منهم بصيد بعض السمك وجمع المحار ، وتوغَّل فريق آخر في الغابات يطارد العصافير ويصطاد ما يقع تحت أيديهم منها ، ولكن مثل ذلك

الصَّيْد الضئيل ما كان ليسُدّ منهم خَلَّة الجوع ، فبدأ القلق يساورهم ويَنْخر جوانحهم .

واهتمّ « أوذيس » بهذا الموقِف الضَّنْك ، فَتَرك ذات يوم رفاقه مستقلين إلى رمال الشاطئ ، وانْتَحَى ناحِيةً يفكّر في وسيلة يتمكّن بها من مغادرة الجزيرة أسْرَعَ ما يكون ، فغَلبه الجوع والتَّعَب ، ونام عند جِذْع شجرة وارفة الظِّلال .

وبينما كان ناعِمًا بلذيذ الرُّقاد ، عَمَد « أوريلوخوس » إلى أن يشوّش على رِفاقه أفكارَهم ، ويَبْذُر في قلوبهم بُذورَ السّخْط فقال :

– (أيّها الصّحاب ! من الحَماقة أن نموت فريسةَ الجوع ، على حين أن طّيب الطَّعام تحت متناوَل أيدينا ! .. فهيَّأ نَذْبَح أجملَ هذه العجول ذات القرون البرَّاقة ، ونمتِّع النفس بلحمها الشَّهِيّ ، وغداً عندما نعود إلى « إيتاكا » نشيّد لإله الشمس عِوَضًا عنها ، مَذْبحًا فَخْمًا نقدّم له فيه ثمين الهدايا ، وافْرِضوا أنه ثأر لنفسه مِنَّا ، ورمانا بَنكْباء الرياح وهوج العواصف تحمل ي طيَّاتها الغَرَق والموت ، فذلك خَيْرٌ من أن يَبْقَر الجوع بطونَنا الحاوية الضَّامِرة ، ونتساقط مَوْتَى الخَوَر والهُزال، في جزيرةٍ ضنينة شحيحة ، لا تَرْعَى الزَّوائر ولا تُكْرِم الضَّيْف .

أثر كلام « أوريلوخوس » في نفوس سامعية ، فهَبُّوا بلا وَعْيٍ

ولا تدبُّر ، يأخذون بنصيحته ويَنْزِلون عند إغرائه ، فأمْسَكُوا بعَدَدٍ من أسْمَن الأنعام وذبحوه ، وأوقدوا النار وشوَوْه عليها ، وظَفِروا بعد قليل بقطَعِ شِواء لذيذة ، أكلوا منها حتى امتلأت بطونهم .

وبينما كان القوم مستسلمين إلى وليمتهم الفاخرة صحا « أوذيس » من سُباته العَميق ، ومَشَى في خُطَي مُتَّئِدة إلى رِفاقه ، فشمّ وهو متَّجه إليهم رائحة الشِّواء ، فأدرك ما حَدَث ، وذَكَرَ عندئذ نُبُوءات « كركي» المفجعة ، فتنهَّد وتوجَّع ، وتوقَّع أن يحِلّ بهم وخيمُ العواقب ، فسارع إلى رفقائه وانهال عليهم لَوْمًا وتَقْريعًا ، وعنَّفهم على عِصْيان أمره ، وأنذرهم بشَرٍّ مُسْتَطير ، ولكن ماذا ينفع التَّنْديد والتَّعْنيف ، بعد إذ وقعت الواقعة واجْتَرَحُوا ما اجْتَرَحُوا .

ولقد صاحَبَتْ تنديدَ « أوذيس » بهم علاماتٌ غريبة ، جعلتهم يأسَفون على تهوُّرهم ورُعُونتهم ، فقد رَأوْا جلودَ الأنعام التي سَلَخُوها تزحَف على الأرض ، وشَهِدُوا قِطَع اللحم التي تُشْوَى على السَّفُّود تَثْغُو ثغاءً مكتومًا ، وسمعوا كذلك خُواراً شديدا يملأ الجوّ ، تُرَدّدُه قُطْعان لا تراها الأنظار

بَيْدَ أن الجوع المتشبِّث ببطون هؤلاء الملاّحين ، صَرَفَهم عن التَّفكير في أمر هذه الحوارق المخيفة ، فاستَمَرُّوا يأكلون ويأكلون مُدَّةَ أسبوع برأسه.

وفي اليوم السابع ، هدأت الرّياح وسكنت العواصف فجأة ، كأنما

استجابت لقُدْرة قادِر ، فخُيِّل إلى « أوذيس » ورِفاقه أن الفرصة قد سَنَحَتْ للرحيل ، فدفعوا السفينة إلى مياه البحر ، ونَشَرُوا القُلوع وساروا بها سيراً حَثِيثًا حتى غابت الأرض بعد قليل عن الأبصار وبَيْنا هم في عُرْض البحار ، إذ لاحَتْ لهم في أقْصَى الأفُق غِمائمُ سُود ، كانت تجرى نحوهم ولم تلبث أن غطَّت وجه السماء ، ثم أعْقبتها عاصفة هَوْ جاء هزَّت جوانب الجوّ ، وانقضَّت عليهم انقضاض الصَّواعق، فتحطَّمت سارية السَّفينة بما عليها من أشْرِعَة ، وسقطت على أمّ رأس الملاّح الذي كان تحتها فصرَعَتْه ، وغارت جُثَّتَه في تضاعيف الأمواج. ودَوَّي بعد ذلك رَعْدٌ قاصِف ، تَبعَه بَرْقٌ يَخْطَف الأبصار هَبَط على السفينة ، وأشْعَلَ فيها النيران ، فاندلعت ألسِنَة اللَّهَب تَلتهم الحديد والخشَب وما تحويه السفينة ، فمالت رُوَيْداً روَيْداً على جانبها حتى ابتلعتها الأمواج ، وابتلعت معها الملاّحين الأشقياء ، فطَفَوْا قليلاً على سطح الماء ثم غاصُوا في الأعماق .

أمَّا « أوذيس » فقد تمكَّن من أن يتشبَّث ببعض حُطام السفينة، فاتَّخذه طَوْفًا له ،وقضى فيه ليلةً لَيْلاء يُصارع فيها الموج في مشقّة وعذاب .

وعندما طَلَعَ الصَّباح ، تبَّينَ ، ويا لَهَوْل ما تبيَّن ، أن الرّياح والأمواج قد استوحت سوءَ طالِعه وقذفته في اتجاه « خاريبديس » و « سكيلا » .

وَصَل الحريب المسكين إلى المَضيق الذي يَفْصِل الصَّخْرَتين ،

وانْحَسَر الماء فيه عن هُوَّة عميقة القَرار ، كاد « أوذيس » يَهْوي إلى أغْوارها لولا أنه استجمع قواه ، وقَفَز إلى أغصان شجرة التين النَّامية عند سَفْح الصخرة فوق كهف « خاربيديس » وتعلَّق بها كما يتعلَّق الوَطْواط بعَمُودٍ من الخشَب .

ولما عادت المياه إلى مُسْتواها الأول ، وبَرَز على سطحها الطَّوْف الذي كان « أوذيس » يستخدمه ، قفز هذا إلى البحر ، وسَبَح مسافةً قصيرة حتى أدرك الطَّوْف فركبه ، وأخذ يُجَذّف بذراعيه ويَمْخُرُ بطَوْفه عُباب الماء حتى استطاع أن يبتعد من ذلك المكان الرهيب .

وبقي « أوذيس » تسعة أيام طويلة ، تتقاذفه الأمواج ليلَ نهار ، إلى أن رَمْته هو وطَوْفِه عند شاطئ جزيرة من الجُزُر ، متهالك ، القُوَى خاثرَ النفس ، فاستلقى إلى الرّمال كمن يريد ، وقد نـجا من الغرق ، أن يَلْفِظ أنفاسَه فوق اليابسة .

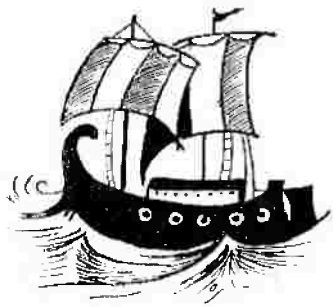

٥

سقط « أوذيس » على تلك الجزيرة في ليل مشحونٍ بالعواصف ، فبدت لعينه قاتمة كئيبة ، ولكن ما إن طَلَعت الشمس في صَباح اليوم التالي ، حتى تبدَّلت الحال في نَظَرة ، وتغيّرت الصورة .

فالبحر الذي كان ليلةَ أمس داكنَ اللون مُخِيفَ الزَّئير ، لا ح له تحت أشعة الفجر وَلألاء الصباح ، جميلَ اللون تَضْرِب زُرْقَتُه إلى لون البَنَفْسَج ، وحيثما أَجال طَرْفَه في أنحاء الجزيرة ، بدت له

المروج الخُضْر مُرَصَّعَة بباقات كَثِيفة من البنفسج النَّضير ، فقرَّت عينُه وابتهجت نفسه بهذا المنظر الخَلاَّب السَّاحر .. ولم تكن هذه الجزيرة إلا مملكة الرّبة « كالبسو » ذات الشعر الذّهبيّ الوهَّاج .

وارتاح « أوذيس » بَدَنًا وفِكْراً ، فراح يتوغَّل في أقاصي الجزيرة ، ويَضْرب في مناكب أنحائها حتى وَصَل إلى كَهْف عميق الغَوْر تَحِفُّ به سلسلة من شجر الحَوْر والصَّفْصاف أوَتْ إلى غصونها آلافٌ مؤلَّفة من منوّع الطيور ، فجاوَرَ اليوم فيها العُقْبان ، وتساوق فيها تغريد البلابل وهَدِيل الحَمام .

وكان إلى جوار ذلك الكَهْف ، أربعة ينابيع يَنْبَثِق الماء منها زُلالاً صَافيًا صفاءَ البلَّوْر ، ويجري في خريرٍ مُطْرِبٍ هادِئ ، وقد ظلَّلَتْه سَماوَةٌ من الدَّوَالي المُثْقلة بعناقيدَ من حبَّات الذهب ، هذا وقد عَبِق الجَوّ في ذلك الصباح المُشْرق بأريج عِطْرٍ مُسْكِر ، ينبعث من نار تؤججها عَيدانٌ من خشب الصَّنْدَل وشجرَ الأرْز .

وحين بَلَغ « أوذيس » الكَهْف ، وقَع نظره على امرأة بارعةِ الجمال، جالسةٍ عند عَتَبته ، وقد ارتدت ثوباً أنيقاً بَرّاقًا يشُدُّه إلَى وسطها حِزامٌ من الذّهب ، وكان بين يديها نسيجٌ تَنْسِجُه بمِكُّوكٍ من العَسْجَد الخالص ، وهي تُغَنّي وتُنْشِد أعْذَب الأناشيد وأشْجارها .. إنها « كالبسو » الرّبة التي يخشاها البشر .

رحَّبَتْ « كالبسو » بالزّائر الوافِد أجملَ ترحيب . واستقبلته

أحْسَنَ استقبال ، فأيْقَن « أوذيس » بعد تلك الحَفاوة البالغة أنه أمينٌ على نفسه من شَرّها وسوء مَكْرِها ، وزاد هذا الاعتقاد رُسُوخًا في ذهنه، حين رآها تَحفُّه ببالغ العناية ، وتبدّد من جوانحه الضَّعْف والتَّعَب ، وتُعِيد إليه عُنْفوان قُوَّته وبأسه .

على أنه ، على ما غَمَرَتْه به من ثمين الهدايا والألْطاف ، وعلى ما كَحَل به الطّرْف من جمال الرّياض وبَسْمة الحُقول يموج فيها البنفسج، ويتألّق الزَّهَر والرَّيْحان ، بَقِيَ أليفَ الهمّ والأسَى ، تصطرع في فؤاده عوامل الأشْجان ... ذلك أنه في حقيقة الأم كان سجينَ « كالبسو » .

وكثيراً ما قالت له تلك الربَّة الجميلة الفاتنة :

– (ابْقَ عندي ، وعِشْ معي ، لا تَعْرِف الشيخوخة ولا يُدْرِكك الموت) .

ولكن نوازعَ الحَنِين إلى وطنه ، كانت تَنْخُرُ فؤادَه ، فكان يذهب في كل يوم إلى الشاطئ ، ويجلس على أرضه ، ويُطِيل التَّحْديق في الأفُق، وهو يفكّر في وطنه ، ويَحْلُم بالرّجوع إلى شواطئه وصخوره ، إلى أرضه وأرجائه، ويَحِنّ مشتاقًا إلى بيته حيثُ تنتظره زوجته « بنلوب » ولَكَمْ وَدَّ لو يشتري لُقْياها بعمره كله . غير أنه سُرْعان ما تضمحلُّ في خاطره الأوهام والأحلام ، ويصطدم بحقائق الحال ، فينهَض عائداً في خُطًى وَئِيدَة إلى الكَهْف الذي

حَبَسَتْه فيه « كالبسو » منذ ثمانية أعوامٍ طِوال ، تحت قاهرِ سُلْطانها .

ولئن لم تقارب مصايبه الشِّداد من نهايتها ، لقد كان السبب حِقْد «نبتون» إله البحر عليه ، فقد أراد أن يَثْأر منه وأن يَكِيل له صارمَ العِقاب رَدًّا على ما اقترفه من تعذيب ابنه « بوليفيموس) ذي العين الواحدة ، ولكن حسن الحَظّ لم يتخلّ عن « أوذيس » ذلك أن الرّبَّة « ميزفا » ذات العينين الزَّرْقاوَيْن كانت تحميه وترعاه ، وتُخْلِص له الإخلاص َكلَّه .

عَزَّ عليها أن تَرَى البطل يُهْرَعُ إلى الشاطئ ويستسلم فيه إلى البكاء والعَويل ، فأثّرت في فؤادها عَبَراته ونشيجُه ، وكانت تَعْلَم أيضًا ما يستعر في قلب « ينلوب » و « تليماك » من لَواعِج الحزن والألم ، شوقًا إلى « أوذيس » وانتظاراً لعودته بعد غِيابه المَدِيد الطَّويل .

فذهبت تَلْقَى الآلهة ، وتلتمس منهم أن يعينوا « أوذيس» على الرّجوع إلى مملكته ، وانتهزت فرصة غِياب الإله « نبتون» وكان قد قام برِحْلةٍ طويلة ، فاستدّرت شَفَقة الآلهة على « أوذيس»، وقصّت عليهم ما نُكِبَ به البطل من أحداث مُفْجِعة ، ورَوَتْ لهم ما يَجِيشُ في صدره من همٍّ مُقْعِدٍ مُقِيم ، وما يخالجه من شوق إلى بلاده ، وحَنينٍ إلى رؤية الدُّخان الأزْرَق يتصاعَدُ خفيفَ

الْجَناحِ فوق الغابات ضاربًا في أجوز الفضاء .

فَرِثَي الآلهة لحال البطل ، وأخذتهم الشَّفَقَة عليه ، فنادَوْا رسولَهم الإله « هرمس » وأوفدوه إلى « كالبسو » وسفيرُهم هذا مشهور بخُطُواته السَّريعة ، يعتمدون عليه في عاجل المَهامّ ، فانتعل حذاءَه الذَّهَبيّ الذي لا يَبْلَى ، والذي يستطيع به أن يَحُبون الأرض ويجتاز البحار ، وتناوَلَ عَصاه السَّحْريَّة التي تمكّنه من أن يُغْرِق الناس في سُباتٍ عَمِيق ، وطار مبعوث الآلهة إلى جزيرة « كالبسو » خفيفاً سريعًا ، يُلِمُّ بالمسافات الشاسعة إلمامًا رَفِيقًا في عَدْوٍ يُشْبِه سفيفَ الطيور فوق زاخِر الأمواج .

بَلَغَ الجزيرة المنشودة ، واجتاز الحقول والرّياض المُنْفَعمة بالزَّهر والرَّيْحان ، حتى وصل إلى الكهف الذي تُقِيم فيه الرّبة « كالبسو» فلم يَعْثُرْ فيه على « أوذيس » وكان قد ذهب على عادته إلى الشاطئ، يُطْلِق فيه لعَبَراته العِنان ، فتنحدر من مآقيه في سَيْلٍ يُبَلّل الرّمال .

وكانت الرّبّة « كالبسو » ذات الضفائر الشُّقْر منهمكةً في نَسْج وشاحٍ بَمكُّوكها الذَّهبيّ ، وهي تُغَني جميلَ الأغاني ، فلما رأت « هرمس» مقبلاً عليها ، خَفَّت إلى استقباله ، وقدّمت له لذيذَ الطَّعام وسائغَ الشَّراب ، ثم سألته عن الغَرَض من زيارته .

فأنْهَى « هرمس » إليها بقَرار الآلهة ، فَهُمْ يأمرونها بأن تُطْلِق

سَراح « أوذيس » وتَدَعَه يرحل عنها عائداً إلى وطنه .

فصاحت « كالبسو » الجميلة قائلة :

– « ما أقْسَاكم أيها الآلهة وما أشَدَّ غَيْرَتَكم ! أنا التي أنقذتُ « أوذيس » حين كان مُتَشبِّثًا بحُطام يتراقص به فوق هادِر الأمواج ... أنا التي قادته إلى هنا واحتفَتْ به وَغَمَرتْه بالعطف والحَنان ... فلماذا تريدون أن تنتزعوه منّي ؟ وكيفما كان الأمر فكيف استطيع أن أعِيده إلى بَلَده ولا سُفُنَ عندي ولا مَلاَّحين ؟!

فقال لها « هرمس » :

– عليك أن تُطِيعي أمرَ الآلهة ،وإلاّ تحمَّلْت من غضبهم شديد العَذاب .

قال « هرمس » هذا ولم يَزِدْ ، ثم طار فوق الرّياض المزدهرة وحَلَّق فوقَ البحر الأزرق ، وتوارَى في طَبَقات الجوّ .

وسارت « كالبسو » إلى الشَّاطئ بقلبٍ حزينٍ أليم ، ووضعت يَدَها في رِفْقٍ وحَنان فوق كَتِف « أوذيس » ، وكان لا يزال يُجْهِشُ بالبُكاء وينتحب ، وقالت له :

– كَفْكِفْ دموعَك أيها المَنْفِيُّ التَّاعِس ، فقد آليتُ أن أعِيدَك إلى وطنك ، فانْهَضْ واقْطَعْ بعضَ الشَّجر ، واصْنعْ منه العَوارِضَ والرَّوافِد ، واجْمَعْها في طَوْفٍ كبير ، وغَطِّه بألواح الخشب على غِرر جسْرِ سفينة، فإذا انتهيتَ من عملك ، وَضعتُ لك

فيه الماءَ والزَّاد ، وأطلقت م حولك نَسِيماً عليلاً تَصِل به إلى بلدك آمنًا، مُطْمِئنًّا ... تلك هي إرادةُ الآلهة ، ولا بُدَّ لي أن أخْضَعَ لسُلْطانٍ فوق سُلْطاني .

أصْغَى « أوذيس » إلى حديث « كالبسو » واستوعب كل كلمةٍ من كلماتِها ، فلم يُصَدّق أذنيه فقال لها :

لا شكّ أنك تُبَيِّتين لي أمراً إدا ، وتنوين بي شَرًّا جعلك تطلبين إليّ أن اجتاز الواسع ، على طَوْفٍ صغير ، فلن أركب هذا الطَّوْف قبل أن تُقْسِمي بأغْلَظ الأيْمان ، أنك لا تَسْتعَيْن إلى هَلاكي » .

فلم يَسَعْ « كالبسو » إلاّ أن تبتسم لما أبداه « أوذيس » من ارتياب وحَذَر ، فقالت له :

– لا تَخَفْ ولا تَخْشَ بأسًا ، فلست أنْوي لك إلاّ الخير كلّ الخير، ولا أنا على ما تعتقده فيَّ من غِلَظ كَبِد وقَساوة قلب ، وإني لأعِدُك بأن أبْذُل في سبيلك كلَّ ما هو مَقْدُروي حتى أعِيدَك إلى وطنَك آمِنًا غانِمًا » .

ثم قدّمتْ له فأسًا وبعض الأدوات الأخرى ، وقادَتْه إلى غابةٍ من الغابات حافلةٍ بجميلِ الشجر والدَّوْح ، ما بين صَفْصافٍ وحَوْرٍ وصَنَوْبَر .

فأقْبَل « أوذيس » على العَمَل فَرِحًا مُبْتهجًا ، وقطع بفأسه

الفولاذِيَّة عشرينَ شجرةً ضَخْمة ، وعَكَفَ يُشَذّب أغصانَها وجُذُوعَها، ويَنْحَت منها القِطَع اللاّزمة ، تم استقام له هيكلُ الطَّوْف فراح يجمعُ أطرافَه ، ويَصِلُ بينها بمساميرَ قويَّة من الخشَب ، وجاءته « كالبسو» بعد ذلك بلَفَّةٍ من القِماش فصّل منها ما يحتاج إليه من أشْرِعه، وانتهى من صُنْع مَرْكَبه في أربعة أيام ، ثم دفعه إلى البحر على بَكَرٍ من الخشب .

وفي اليوم الخامس جاءته « كالبسو » بالوافر من الزّاد والمُؤَن : فمن أكياس قَمْح ، إلى دِنان خَمْر ، إلى ما لا يُحْصَى من لذيذ الطعام والحَلْوَى، مما يُحِبّ ويُؤْثِر ، ثم ودعَته وَداعًا رقيقًا ، وبعثت إليه بنسيم عليل ينفُخ أشْرِعه المركب ، فكان « أوذيس » أسْعَدَ السُّعَداء بنجاته من رِبْقَة أسْرِه الطويل ، وبرحيله عن تلك الجزيرة المسحورة .

وأرشدته « كالبسو » إلى النجوم التي يجب عليه أن يهتدي بها في سُرَاه ، فوَعَى في صدره إرشادها ، وآلَي على نفس ألاّ ينساه ، وبعد ثمانية عشر يومًا من رحلة موفَّقةٍ سعيدة فوق العُباب ، لاحت له الأرض، وكانت جزيرة « الفياكيين » ، وبرزَتْ لعينيه في الأفُق كأنها تُرْسٌ فوق صدر البحر .

وحدّث عن غِبْطة « أوذيس » ولا حَرَج عندما رأى هذه الجزيرة التي يعرِفُ أنَّها قريبةٌ جدًّا من مملكته ، فظنّ أنه بَلَغ خاتمة

المُطاف من متاعبه وأرزائه ، ولكن يشاء عاثِرُ حظّه أن يمُرَّ به في تلك اللحظة « نبتون » عائداً من بعيد سَفَره ، فلما رأى مركبَ « أوذيس» يختال متهادِيًا فوق عُباب الماء في رِفْق وهَوادة ، قَطَّب إله البحر حاجِبَيْه وتملَّكه غضبٌ شديد وقال في نفسه :

– « ماذا أرى ؟! لعلَّ الآلهة قد اغتنموا فرصة غيابي فأعانوا «أوذيس» على الرُّجوع إلى وطنه ! ولعل « أوذيس « يعتقد الآن أنه نَجَا من قَبْضَتي ! ولكن لا ، فمملكته من قريبة الشُّقَّة بعيدةُ المنال » .

فَشَرَع إله البحر يجمَعُ متفرّق السُّحُب فتراكمت طَبَقَةً فوق طَبَقَة، وأخذ يُثِير الأمواج من أعماق البِحار ، فانتشر على الأثَر ضَبابٌ كثيفٌ داكِن ، غَطَّى وجهَ الأرض وسطحَ المياه ، وأذعنت زعازِعُ الرياحِ لأمْرِه فهَّبتْ وعَصفَتْ ، وهاج معها البحر وارتفعت أمواجه جِبالاً فوق جِبال، وامتزج هزيمُ الرَّعْد بهدير الموج فسُمِع لهما دَوِيٌّ يُصِمّ الآذان ويزلزل الأطواد ، وعلى الجملة كانت العواصف في أوْجِها .

واغتَمَّ « أوذيس » لهذه الحال وانخلع فؤاده ، واستولى عليه يَأسٌ ما بعده يَأس فقال :

– (وَيْلي أنا الشَّقِيّ ! ليتني مِتُّ عند أسواء «طروادة»، إذن لَمِتُّ مِيتَةَ جُنْدِيّ سَقَط في المعركة ! » .

وبَيْنا هو يحدثُ نفسه بمثل هذا الحديث ، صَفَعَتْ طَوْفَه موجةٌ ضَخْمة انتزعت الدَّفَّة من يده ، وحَطَّمَت السَّارية ومزَّقت الشِّراع ، وألقت برَبِّ الطَّوْف في اليَمّ .

دَفَعَة ثِقَلُ ثِيابه إلى الأعماق ، ثم عاد يطفو على سطح البحر ، وقَطَراتُ الماء تتصَّبب من وجهه ، ولكنه لم يَفْقِد رباطَةَ جَأشِه ، فما هي إلاّ بعض ضَرَبات تكيلها ذراعاه القويَّتان لمتدفِّق الموج ، حتى يقترب من الطَّوْف ويقفِز إلى سطحه .

واستمرّت الأمواج تتقاذف الطَّوْف كريشة في مَهَبّ الرّياح ، وتَلْعَب به ما شاء لها اللَّعب ، و « أوذيس » مغلوبٌ على أمره معها ، رازِح تحت وَطْأة إله البحر وانتقامه ، حتى كان منظره يُثِير الرأفة والشَّفَقة ، فرَثَتْ لحاله عروسٌ من عرائس البحر ، واندفعت خارجةً من وسط الأمواج ، كأنها طائرٌ أبيض من طيور الماء ، وجاءت تَحُطُّ على طَوْفه وتقول له :

– « أيّها البطل الشّجَاع ! لا تيأسْ ولا تتخاذَلْ ، فلن يُهْلِكك إله البحر ! استمعْ لي واستوعِبْ نصائحي تَنْجُ وتَسْلَمْ ... اخْلَعْ ملابسك التي أثْقَلَتْها المياه ، واترُكْ طَوْفَك ، و اسْبَحْ إلى الأرض في عزم وقوة ، وخذ وِشاحِي وتحزَّمْ به ، فإنك يَقِيك الغوائل والهَلاك ، فإذَا لمستَ الأرض فاطْرَحْه وراءَك دون أن تُدِير رأسَك » .

وشَفَعت عروس البحر القول بالعمل ، فسلَّمَتْه وِشاحَها ، ثم

غاصت في الماء ، وانطبقت عليها بعد انْفِراج .

ولِفَرْط ما مُنيَ به « أوذيس » من كوارث ، كان في حَيْرَةٍ من أمر هذى العروس ، أيَثِقُ بها ويَتْبَع نصائحها ، ويُكْبر لها ما أبْدَتْه نحوه من عَطْف ومُرُوءة ، أم يضربُ صَفْحًا عن عوارفها ، ويتلقَّاها بالحَيْطة والحذَر ، وبقي متردّداً حائراً حتى حَزَم أمْرَه ، وقال يخاطب نفسه :

– « إن الآلهة تتآمَرُ عليّ وتسعي إلى هلاكي ، فلن أطيعَ إذن وصايا عروس البحر هذه ، وسأبقى راكبًا طَوْفي ما دامت عوارضه وألواحه متينةً متماسكة ، فإذا حطَّمَتْها الأمواج وبَعْثَرَتْها ، ألقيتُ بنفسي في الماء سابحاً ما تمكَّنت من السباحة ، فإمَّا سَلِمْت وإمَّا هَلَكْت » .

وفي هذه اللحظة أثار الإله « نيتون » موجةً أقْوَى وأعْنَف ممَّا سَبَقَها ، ووجَّهَها إلى الطَّوْف ، فعصَفَت به وحطَّمَت ألواحه وعوارضه ، وبَعْثَرَتْها في أنحاء المياه ، فأمْسَك « أوذيس » بعارضة منها ، وخَلَع ملابسه المبلَّلة بالماء ، وتحزّم بوِشاح عروس البحر ، ثم تَرَك العارضة وأخذ يَسْبَح بعُنْف وقوّة .

فنظر إليه إله البحر نظرةَ احتقار وازدراء وقال له :

– « ليس لك إلاّ أن تَهيم الآن على وَجْهك عَبْرَ الأمواج الصَّاخبة ، إلى أن تَلْقَى من يُغِيثُكَ في شِدّتك ! » .

ثم ألْهَبَ بسوطه الطويل مَتْنَ جوادِه البحري ذي العُرْف الأبيض ، واتَّجَه إلى مَقَرّه البعيد في أعماق البحر ، تاركًا « أوذيس » تحت رَحْمَة الأمواج .

وأقبلتْ بعد ذلك رَبَّة الحكمة « ميزفا » صديقة « أوذيس » فهالَها أن تراه يُصارع الأمواج وتصارِعُه ، وعزمَتْ أن تُنْقِذه من مِحْنتَه ، فأمرت جميع الرّياح إلاّ ربح الشّمال أن تكفّ عن الهُبوب ، وأنْهَته إلى هذه الريح أن تدفع « أوذيس » دَفْعًا سريعا إلى أرض « الفياكّيين » فقضى « أوذيس » يومين كاملين محمولا على يد الأمواج المتلاطمة ، حتى إذا طَلَع فجرُ اليوم الثالث ، هدأت الرّيح الرُّخاء ، وسَكَنَ الموج، ولاحت الأرض قريبةً كلَّ القُرْب .

وكاد قلب « أوذيس » يَطِير شَعاعًا من غمرة الفرح ووطأة الحبور، فسَبَح جاهداً منتعشًا ، وكان كلما طَوَي في سِباحته مسافةً من المسافات، وأصبح يميّز أشجار السَّاحل ، ازداد نشاطًا وأيْقَنَ أنه واصلُ عمَّا قريب إلى غايته .

غير أنه سُرْعانَ ما انقلبت فرحته إلى يأسٍ قاتل ، عندما طَرَقَ مِسْمَعه هديرُ الأمواج وهي تتكِسَّر على صخور السَّاحل ، ويُسْمَع لها قَصْفٌ أين منه قَصْفُ الرُّعود ، فأجال الطَّرْف في طُول السَّاحل ، فلم يَرَ إلا صُخوراً ضَخْمة يمزقها الموج ويسِيل من ثناياها لُعابُ الماء ، فلا فُرْضَة هناك ولا ملجأ ، ولا شاطئ

يَقِي الجزيرة من هَجَمات الأمواج وضَرَبات الصخور العائمة .

فتنهّد « أوذيس » من أعماق صدره ، واسْتَحْوذَ عليه حزن لا يُوصَف ، وقال في نفسه :

– « ها أنا ذا على مَقْرُبَة من الأرض ، ولا أمل لي في أن أهْبِطَ إليها ، وأنجو من الموت الأزرق الذي يَحُوم حولي ، فلو حاولت أن أنزل بها لمزَّقَتْني الأمواج على هذه الصخور المسنونة ، ولو سبَحْتُ على طول السَّاحل لَعَلِّي أجد فيه خليجًا أمينًا ، لجرفي التَّيار وأقصاني عن الأرض ، وربما بَعَثَ إليّ الإله « نيتون » بوحشٍ من وحوش البحار يفترسني ويَدُقُّ عِظامي » .

وبينما كان يداور فكَره حائراً في أمره ، صفعته موجةٌ ضَخْمة ، وألْقَتْه بين سِلْسِلة من الصُّخور العائمة ، ولولا الرَّبَّة « مينرفا » لتهشّمت عِظامه ، وفارقت روحُه جسدَه المُثْخَنَ بالجراح ، فقد أوحَتْ إليه حين حمَلَتْه الموجة العارمة ، بأن يتعلَّق بصخرة من تلك الصُّخور ويتشبَّث بها ففعل ، ولكن الموجة في ارتدادها حملت عليه ثانيةً ، وانتزعته من الصخرة ، ورمَتْ في ثَبَج البحر .

غاص المِسْكين في الماء ، ووصل إلى الأعماق ، وكاد يموت غَرَقًا لولا أن هُرِعَت الرَّبَّة « مينرفا » ، ثانيةً إلى تذليل الصّعاب من حوله ، فاستطاع بمَعُونتها أن يرتفع إلى سَطْح الماء ، وأن يَبْتَعِد من خَطِّ الصّخور، وظلَّ يَسْبَح حتى وصل إلى مَصَبّ أحد الأنهار .

فتضرع « أوذيس » إلى النهر وقال :

– « رُحْمَاكَ أيّها النهر الجميل ! هَدّئْ أمواجك والْطُف بي ، ومَهِّدْ لي سبيل النزول بِضفافك ، فقد طال عَذابي » .

رَقَّ النهر لِنَجْواه ، وأمر الأمواج أن تسكن فسكنَت ، وحمل « أوذيس » على صَفَحات مائه الصافي ضَفَّةَ من ضِفافه .

وكان جسمُ صاحبي النَّاجي من الغَرَق ، منتفخًا مُثْخنًا بالكُلُوم، يسيل الماءُ المِلْح من مِنْخَرَيْه ، وكان متقطِّع الأنفاس يكاد يَسْقُط من الإعياء ، وما هو إلاّ أن يَثُوب إليه رُشْدُه وحَواسُّه ، ويشْعُر أن يمشي على الأرض الصُّلْبَة ، حتى يَطْرح وِشاحَ عروس البحر، في مياه النهر، فيحمله التَّيار إلى المَصَبّ ثم إلى رُقْعَة البحر الواسع، وتَنْشَقّ الأمواج بعد قليل من عروس البحر ، فتلتقط الوِشاح ، وترجع به إلى مَقَرّها ، سعيدة بأن تعرف أن « أوذيس» في مأمَنٍ من الأخطار .

وغَلَب الفرح وعِرْفان الجميل على فؤاد « أوذيس » فَرَكَع بين أعواد النَّبات النَّاجمة على ضِفاف النهر ، وقبَّل في شغفٍ وخشوع وجه الأرض التي نزَل بها .

وما إنْ يَنْهَض من جَثْوَتِه ويتدبَّر أمْرَه ، حتى تستولي عليه مخاوفُ جديدة ، فَراحَ يشاور نفسه ويقول :

– « لو مكَثْت قُرْبَ النهر لِتُّ من بَرْد الرّياح وصقيع

الصَّباح ، ولو صعَّدْتُ في الجبل لما أمِنْت على نفسي غائلةَ الوُحوش الضَّارية تخرُج عليّ من مكامِنها وأكون لها فريسةً بادرة » .

ومال في آخر الأمر إلى اتِّباع الشّقّ الثاني من تفكيره ، فرَقِيَ إلي تَلٍّ من التلال ، واتَّجه نحو شجرتي زيتون تشابكت أغصانُهما فتألَّف منها ملجأ كَثيف أمين .

فأعَدَّ لنفسه من يابس ورق الشجر فِراشًا يَفْتَرِشُه وغِطاءً يَلْتَحِف به ، ثم استلقى إلى الفِراش وتغطّي باللِّحاق الدافئ العَطِر ، واستسلم إلى الرُّقاد ، فأرسلت إليه عندئذ الرَّبَّة « مينرفا » لذيذَ النُّعاس يُطْبِقُ جَفْنيْه ، فنام ونَسِيَ مع الراحة والدّفْء وسعيدِ الأحلام ما كان قاسَاة من حوادثَ وأحْداث .

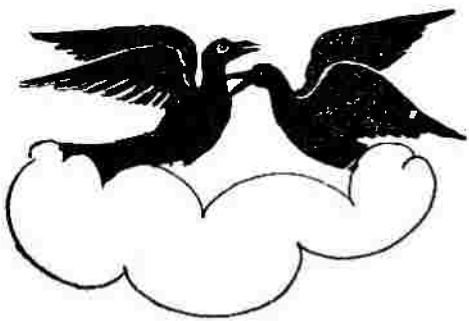

٦

ليس في بلاد « الفياكيين » طُولاً وعَرْضًا ، مخلوقةٌ أجْمَلُ وأحْلَى من ابنة الملك ، إنها « نوسيكا » الشقراء الشَّعَر البيضاء البَشَرَة ، ففي هذه البلاد ألقت العاصفة « أوذيس » ، فبينما كان يَغِطُّ في نومه الهنيء، فوق فِراشه الوَثِير المصنوع من وَرَق الشجر ، ذهبت الرَّبَّة « مينرفا » إلى قصر الملك ، ودخلت خِدْر « نوسيكا » ، وهَتَفتْ بها قائلةً في حُلْم سعيد لذيذ :

– « اطلبي من أبيك الملك مركبةً يَجُرُّها جوادٌ فارِه ، واذهبي بها إلي ظاهر المدينة فإلى النهر ، واغْسِلي هناك ما تُرْثِرين من مَلْبَس ووِشاح » .

واستيقظت « نوسيكا » على شُعاع الصَّباح ، وبَوْحْي من حُلْمها السَّعيد ، ذهبت تَلْقَي أباها ، فوجدته في البَهْو الكبير يتأهَّب للخروج، ووجدت أمها جالسةً تَغْزِل بعضَ الصُّوف بِلَوْن الأرْجُوان ، فاقتربت الأميرة من والدها وقاله له :

– « أبَتِ العزيز ! أتَرْضى أن تُعيرني مركبةً من مركباتِك ذاتِ الدَّواليب القويَّة لأنقُل بها إلى النهر جميعَ ملابسي ، ولأنقل بها أيضًا ملابسك ، وأعيدها إلى ناصعةَ البياض كالثلج فتَلبَسها نظيفةً نقيَّة في اجتماعات مجلس البَلاط ، وإني لأعْرِف كذلك أن إخوتي الخمسة يُحِبُّون أن يرتدوا نظيف الثياب والمَطارِف » .

فقال لها وهو يبتسم :

– « أعَرْتُك المركبة والجواد ، فاذهبي يا بُنَيَّتي ومُرِى السُّوَّاس أن يُعدُّوا لك ما أردت » .

واختار السُّوَّاس جَواداً أصيلاً مطهَّماً ، وقَرَنُوهُ إلى أجْمل مركبة يمتلكها الملك ، وكانت الملكة قد أمَرت بإعداد سَلَّة تحتوى على كل ما لذَّ وطاب من الزّاد الذي تُحِبه ابنتها وتُؤْثِرُه . حتى يكون لها ولوصِيفاتها منه طعامٌ شَهِيّ ، ثم صُفَّت الملابس والثّياب بدِقَّة وعناية في المركبة ، ووُضِعَت فيها كذلك سَلَّة الزّاد ،

فلما فَرَغَ القوم من مُنَوَّع الإعداد ، اعتلَتْ « نوسيكا » مَقْعَد القِيادة ، وأمسكتْ بالسَّوْط والزِّمام ، ومَسَّت الجواد بالسَّوْط مَسًّا رفيقًا ، فانطلق يجري خبَبًا بالمركبة ومن فيها .

وصلت المركبة إلى ضَفَّة النَّهْر غيرَ بعيد من التَّلّ الذي رَقِيَة « أوذيس» ليلة أمس ، فخفَّت الوَصِيفات إلى الجواد فحلَلْن رباطه من المركبة ، وأطْلقْنَه يَرْعَي العُشْب على طول الضَّفَة ، ثم تقدَّمَتْهُنّ « نوسيكا » إلى النهر ، وعكَفَتْ هي ووصيفاتُها على غسل الملابس بمياه النهر الصافية ، ونَشْرِها فوق الصَّقِيل من حِجارة الضَّفَة .

ولما فَرَغْن من عملِهن ، نزَلْنَ النهر لاهياتٍ ضاحكات ، يَسْتَحْمِمْن ويَعْبَثن بمائة الزُّلازل ، ثم خَرْجنَ من الماء وجَلَسْن يتناوَلْنَ الطَّعام ، وخريرُ المياه يُشَنِّف آذانَهن بألحانه السَّاحرة .

ونَهَضْن بعد ذلك يتلَمَّسْن الملابس فإذا هي مبلولةٌ لم تَجِفّ ، فقَرَّ قرارُهُنَّ على أن يَقْضِين الوقت لاعبات بالكُرَة .

وانْهَمكْنَ في اللَّعِب ، وكانت كل واحدة منهنّ تتلقَّف الكُرَة من جارتِها ، وترميها إلى جارةٍ أخرى ، وهي تجري وتَقْفِز وتُغَنِّي ...

وازدادتْ حَماسةُ اللاَّعبات ، وأخَذْن يَرْمين الكُرَة رَميات قويَّةً عالية ، واتَّفَقَ أنْ ألْقَت « أوذيس » الكرة إلى إحدى وصيفاتِها ، ولكن الوصيفة عجَزَت عن أن تتلَقَّفهَا فسقطت الكرة في النهر ، وجَرَفها

التَّيار إلى البحر ، فصاحت الفتيات صَيْحاتٍ عالية ، ثم قَهْقَهْنَ ضاحكات ، فحَمَل النسيم صَدَى ضَحِكهنّ إلى « أوذيس » وكان لا يزال نائمًا فوق فِراشه الذي صَنَعه من ورق الشجر ، فصَحا من نومه وَخَرَجَ من كَهْفه الذي اصطنعه تحت ظِلال شجرتي الزيتون ، واقتطع بعض الأغصان فجعل له منها حِزامًا بعد إذ كان قد ألقى بثيابه في البحر، حين أشْرَفَ على الغَرَق ، وانحدر إلى حيث كانت « نوسيكا» ورفيقاتها .

ولم يكن مَظْهَرُه ذاك إلاّ مَظْهر رجل متوحش ، فلما أبْصَرَتْه الفتَيات ، تملَّكَهُنَّ الخوف ، وهَرَبْنَ من وجه وهنَّ يَصْرُخْنَ مذعورات، فاختبأ بَعْضُهنّ وراءَ صخور الضَّفَة ، وجرى بَعْضُهمنّ الآخر إلى ناحية البحر ، أما « نوسيكا » فقد كانت على جانب عظيم من الشجاعة ، فلم تهْرُب ، على ما كان يبدو على هذا الرجل المجهول من منظر متوحّش، بوجهه الذي جَفَّ عليه الزَّبَد فاستحال إلى قِطَع من المِلْح ، وبشعر الأشْعَث ، ولحْيَته الكَثَّة الشَّائكة ، بل إنها اطمأنَّتَ إليه عندما رأته يقِف على بُعِد مَسافةٍ قصيرة منها .

وشاء « أوذيس » أن يُبَدّد مخاوفها ، فقَصَّ عليها بصوت عَذْب رقيق ، كيف كاد يَغْرَق ، وكيف قذفته خاتمة المَطاف إلى تلك الرُّبوع، وسألها أن تَدُلَّه على طريق المدينة وأن تمنحه من جُود راحَتِها قطعةَ قُماش يتستَّر بها فقالت له « نوسيكا » :

– « لا يَلُوحُ عليها أيُّها الغريب أنك رجلٌ شِرّير ، لقد سألتني أن أدُلّك على طريق المدينة ، وأن أهَبَك بعض الثياب فحُبًّا وكرَامَه .. واعْلَمْ أنك في بلاد « الفياكيين « وأن أبي هو مليكها » .

ثم نادت وصيفاتِها وقالت لهنّ :

– « لماذا هربْتُنَّ من وجه رجل رأيتُنَّه ؟ أحَسِبْتُنَّه عدرًا وما هو إلا رجل مِسْكين نَـجا من خطر الغرق ؟ هيَّا أعْطِينه بعضَ الثّياب وقدّمْن له طعامًا وشرابًا » .

فخرجت الفتيَات من مخابئهنّ ، ووضعن قرب « أوذيس » بعضَ الثّياب التي جفَّفَتْها الشمس ، فأخذها شاكراً ، ومضى إلى جانب النهر فغاص في الماء الصافي ، ونَزَع عن وجهه وجسده قِطَع المِلْح ، ونظَّف شعره ممَّا عَلِقَ من زَبَد البحر ، ثم خرج وارْتَدَى ثوبًا جميلاً من ثياب شقيقٍ من أشِقَّاء « نوسيكا » وعاد إلى حيثُ كانت الفتيات ينتظرنَه .

وأمَرتْهُنَّ « نوسيكا) أن يُقَدّمْن له الطّعام فامتثَلْن الأمر ، ودعته « نوسيكا » إلى تناوله ، فلَبَّى الدعوة في شَهْوَةٍ فائقة ، وكان قد مضت عليه عِدّة أيام لم يَذُق فيها طعامًا . فلما شَبعَ وارْتَوَى ، طوت الفتيات الثياب ووضَعْنَها في المركبة ، وجئن بالجود فقَرَّبه إليها، ثم تأهَّبْن للرجوع ، فاعتلت « نوسيكا » مقْعَد القيادة وقالت تخاطب « أوذيس » :

– « اتْبَعْني في صُحْبة وصيفاتي ما دمنا في الرّيف ، ولكن يَحْسُن أن نفترق إذا وَصلنا إلى أبواب المدينة ، فلو رآنا الناس مَعًا ، لما تورَّعوا أن يقولوا { ها هي ذي « نوسيكا « تعود في صُحْبة خطيب ، أفتحتقر شأنَ شَبابنا الذين يَودُّون أن يتزوَّجُوها ؟ أفيكون هذا الذي جاءت به رجلاً نـجا من الغَرَق أم إلَها نزل الأرض ليتخذها زوجة له ؟ } فرجائي إليك ألا تتبعني في أنحاء المدينة تجنُّبًا لمثل هذا من أقاويل السّوء ، ومن تندُّر الملاحين العاطلين ، ولسوف ترى عند أبواب المدينة غيلاً من شجر الصَّفْصاف ، تُحِيط به رياض نَضِرة ، فامْكُث عنده رَيْثما أصِل إلى القصر، فإن شئت أن تذهب إليه بعد ذلك ، فاسأل أيَّ غُلام تلقاه يدلَّك على الطريق ، وعندما تَبْلُغ صَحْنَ القصر ، فادخل على الفَوْر الحجرة التي تجلِسُ فيها أمّي ، فسوف تلقاها مشغولةً بغَزْل صوف الأرجوان، على مَقْرُبة من الموقِد وحولها وصيفاتها ... إن عرش أبي يقوم إلى جانب عرش أمّي ، فلا تتوقَّفْ عنده بل انطرِحْ عند قدَمَيْ أمّي، فإذا شمَلَتْك بعَطْفها ورعايتها ورَثتْ لحالك فتوقَّعْ أن يُوَفّر لك أبي كلّ ما تَبْغِي وتحتاج إليه في سبيل الرّجوع إلى بلدك » .

ثم لَمَسَتْ « نوسيكا » بسَوْطها ظهر الجواد ، فمضى ينتهب الأرضَ انْتهابًا إلى المدينة ، مبتعداً من نهر اللجَيْن ، ووَسْوَسَة الزَّهر ، ورمال الضّفة الذهبيَّة .

وعند الغُروب ، وصل « أوذيس » ووصيفات الأميرة إلى غِيل الصَّفْصَاف القائم وسطَ نضيرِ الرّياض ، فتوقَّت عنده ريثما تصِل «نوسيكا» إلى القصر .

وما إنْ يَسْمَع أشقَّاء « نوسيكا » وَقْعَ سَنابِك الجواد يَضْرِب بها الأرض عند مَدْخل القصر ، حتى يَخِفُّوا إلى استقبالها ، ويُفْرِغوا المركبة ممَّا تحْمِل من ثياب ، ويَعْهَدوا في الجواد إلى السُّوَّاس . أما « نوسيكا» فقد ترجَّلَتْ خفيفةً رشيقة ، ومضت إلى جَناحها من القصر ، فرحَّبَت بعَوْدَتِها مربيتها العجوز ، وأوقدت لها الموقِد ثم أعدَّت لها طعام العَشاء .

ومَكَثَ « أوذيس » ساعة في غِيل الصَّفْصاف ، يُمَتِّع ناظريه بما حوله من نَضِير الغِراس ، حتى إذا استقرَّ في خاطره أن « نوسيكا » لابُدّ أن تكون قد بلغت القصر ، تابَعَ سيرَة وانتهى به إلى دخول المدينة . ولشَدَّ ما أُعْجِبَ بأسوارها العالية ، ومِينائها الجميل المزدَحم بمختلف السُّفُن ، وبَلَغ العَجَبُ منه مُنْتهاه عندما وصل إلى قصر الملك ، ورأى أسواره مصنوعة من الفولاذ ، ثم استطاع أن يَسْتَبرِق النَّظر من فَتْحَة بعض الأبواب إلى داخل القصر ، فخُيِّل إليه أن الشمس تتألَّق فيه ، وأن الجُدْران مبنيَّة من أشعَّتها ، ولاحَ له كذلك رَفرَفٌ أزرقٌ جميل ، ممْتَدّ على طوف السقوف ، وكلما أمْعَنَ في التَّحْديق والتَّدْقيق ، بدا له ما يُثير الدَّهَش والإعجاب . فالأبواب من ذهب ، ومداراتُها

من فِضّة ، وعَتباتُها من نُحاس ، ومَزالِيجُها من خالص العَسْجَد ، ولَمَح فيما لَمَح ، بَهْواً كبيراً يَغُصُّ بتماثيل رجال وأنصابِ حيوان ، صِنعَت من الذهب ، وحَمَل كلٍّ منها شُعْلَةً مُوقَدَة .

وكان يُحيط بالقصر بستانٌ أنِيق ، نَمَتْ فيه أشجار الكُمَّثْرَى والرُّمَّان والتّفّاح تتلألأ ثمارها بلون الذهب والعقيق ، وتَتَوالى ما مَدار السنة في هذا البستان العجيب ، هذا إلى ما يحويه من كُروم العِنَب والتين ، وثمَرُ كلً منها أحْلَى من العَسَل .

وقف « أوذيس » إزاءَ هذا البَهاء والجَلال مَدْهُوشًا ، ولكنه رَجَع لنفسه بعد قليل ، وجَرَى إلى الحُجْرة التي جلست فيها الملكة تَغْزل في ضوء الموقد صوفَ الأرجوان ، فارْتَمى على قدَمَيْها ، وقَبَّلَ ركُبْتَيَهْا ، وأذْهَلَ الحضور هذا الموقف فلَزِمُوا جانب الصُّمْت . وقَطَع « أوذيس » حَبْلَ هذا الصَّمْت ، وقال :

– « أيّتها الملكة العظيمة ! لقد اجتزتُ المهالك وركبتُ الأخطار حتى وصلتُ إليك ، فانظري إلىَّ تَجِدِي رجلاً قاسي من العَذاب والتَّبْريح ما لا يُطاق ، وحَكَمَ عليه الزّمن بأن يظَلَّ مدّة طويلة بعيداً من وطنه ، فتفضَّلي ومَهِّدي لي سبيل الرجوع إليه تُحَقِّقي لي قَصِيَّ الرَّجاء » .

وبعد أن أدْلى « أوذيس » بمُلْتَمَسه ، ذهب يجلس قرب الموقد فلم يَنْبِس أحدٌ من الحاضرين بِبِنْتِ شَفَة .

وتناول ملك « الفياكيين » الكلام فقال :

– « عزيزٌ علينا ، والحَقُّ يُقال ، أن يَجْلِس هذا الغريب على رَمادِ الموقدِ جِلْسَةَ المتوسّل الشَّقيّ » .

ومالَ على « أوذيس » وأنْهَضه ، وطلب إلى أحد أبنائه أن يُخْلِيَ له مقْعَدَه ، ثم أمَرَ الوصيفات أن يأتين بإبريق من ذهب ، وطَسْتٍ من فضّة ليغسِل الغريب فيه يدَيْه ، فتمَّ له ما أراد .

ونَعِمَ القوم بعد ذلك بمأدُبَة فاخرة ، حَوَت أطايب المأكل والمشْرَب ، وكان الضيف الغريب واسطة العقْد فيها ، فلَقِيَ من رجالات القصر جميلَ التَّرْحاب والحَفاوة وطولَ مُدّة المأدُبة ، حتى ارفَضَّ السَّامِر ، وانصرف كلٌّ إلى داره .

وكان الملك قبلَ انفضاض الحَفْل ، قد وَعَدَ « أوذيس » بأن يَضَع تحت إمْرَتِه كوكبة من الحَرس تؤمِّن له العَوْدَة إلى وطنه .

وعندما انصرف المدعوُّون ، سألت الملكة « أوذيس » قائلة :

– « هلاَّ أخبَرْتَنا غير مأمور من أين حَصَلْت على ما ترتدي من ثياب ، فإني لأرَى فيها قُماشًا نسَجْتُه أنا نفسي » .

فقصَّ عليها « أوذيس » قصّة أسْرِة في جزيرة « كالبسو » ورَوَي لها كيف هرب منها وكيف فَقَدَ طَوْفه في أثناء العاصفة الشديدة التي هبَّتْ عليه ، وكيف استطاع أن يَهْبِط إلى بلادها ، وأن يُسْعِدَه حُسْنُ الطَّالع بلقاء « نوسيكا » !

وكانت الوصيفات في تلك اللحظة ، قد فَزَعْنَ من إعْداد

حُجْرةٍ للطَّارِقِ الغريب ، وهَيَّأنَ له فيها الفِراش الوثير ، والأغطية النَّاعمة الأرجوانية ، ودعَوْن « أوذيس » إلى أن يأخذ قِسْطَه من الراحة .

ما أحْلَى النَّوْمَ في عين المسافر التَّعِب !

وما كان أسْعَدَ « أوذيس » بما يحِفُّ به من راحة ومُتْعة ! فلا عواصفَ جامحة ، ولا أمواجَ هائجة ، ولا برد ولا جوع . إنه ينام ناعمًا بدِفْء الفِراش واللِّحاف ، فلا زئير موج يُصمّ مِسْمَعه ، فكل شئٍ هادئ في غُرَف القصر ، وما أجمل اللهب يضطرم في المواقد وينعكس ضوءه على الرفارف فتعكسه هي على جدران الفولاذ أشعة من ذهب .

وفي اليوم التالي ،أقام الملك حَفْلاً كبيراً احتفاء بضيفه « أوذيس » تبارَى فيه الأبطال في كل صِنْف من أصناف الألعاب الرّياضيّة ما بين مُصَارعة ومُلاَكمة ، وعَدْو وقَفْز ، وما إلى ذلك ، وأظْهَر كلٌّ من البَراعة والمَهارة والقوّة والبأس ، وما اسْتَحْوَذَ به على قُلوب المتفرِّجين ، ولقد أبْلَى أشِقَّاء « نوسيكا » البَلاءَ الحسَن فيما خاضُوه من مباريات ، وبَرَّزُوا فيها على مُنافِسيهم . على أن « أوذيس » كان صاحبَ القِدْح المُعَلَّي في مباراة رَمْي الأثقال التي اشترك فيها ، فقد تمكَّن من أن يرمي حَجراً ثقيلاً جدًّا ، تجاوز به الحَدَّ الذي بَلَغَه منافِسوه .

وأعْقَبت الحَفْلَ الرّياضي وليمةٌ فَخْمَة ، غَنَّي فيها مُطرِبو الملك ، وأشادوا بفَتْح « طروادة » وبسالة « أوذيس » .

ففَعَل الغِناءُ فِعْلَه في قلب « أوذيس » ، وجاشَ شُعُوره ، وانحدر الدَّمْع على خَدَّيْه ، فلم يَلْمَح غيرُ الملك حُزْنه وتأثُّره ، فسأله عن السَّبب ، فرَوَى له قصّته وأحْداثه منذ أن رَحَل عن « طروادة » ، وكَشَف له عن حقيقيةِ اسْمه .

وفي نهاية المأدُبَة ، قَدَّم الملك والملكة ورجالاتُ البَلاط إلى « أوذيس» ثمينَ الهدايا ، وكانت هديَّة الملك سيفًا جميلاً وشِّيَ مَقْبَضُه بنجوم من الفضّة . أمَّا « نوسيكا » فلم تُهْدِ له شيئًا نزولاً عند عُرْف القومِ وعاداتِهم، غير أنها حدَّقَت فيه طويلاً ، وكأنّ نظراتِها تقول له في صراحة ووضوح ، إنها تراه أجْمَلَ الأبطال وجهًا ، وأعظَمَهم شأنًا ، وعندما هَمَّ بالانصراف خاطبته قائلة :

– « وَداعًا أيّها الغريب النبيل ! اذْكُرْني أحياناً إذا وصلت إلى بلدك » . فقال لها « أوذيس » :

– « سأذكرُكِ ما دام فيَّ عِرْق يَنْبِض ، واذكر أنك أنتِ التي أنقذتِ حياتي يا «نوسيكا» » .

وفي فجر اليوم التَّالي ، توجَّه « أوذيس » إلى سفينة راسية على مَقْرُبة من السَّاحل تَصْحَبُه كوكَبةٌ من الحَرس ، وقد حملوا الهدايا ، السَّنِيَّة التي قُدّمت له ، فوضعوها على ظهر السفينة في عنايةٍ بالغة ، ثم فَرَشوا فوقه بِساطًا جميلاً استلقى « أوذيس » متمدّداً عليه .

وتَمَّ الاستعداد للرَّحيل ، وتحرّكت السفينة ، ثم أخذت تشُقُّ

العُباب في رَوْعَة وجَلا ، وطَربَ « أوذيس » لِسَماع أصوات المجاديف وهَمْهَمَةً الماء حولَ صَدْر السفينة ، كأنها تقول له إنه سائرٌ في طريق «إيتاكا » حيث تنتظره أفراحُ العودة . وما عَتَّمَ « أوذيس » أن سَكِرَ بِراحِ تلك الألحان ، فاستغرق في سُبات عميق .

وسارت السفينة سَيْراً حَثِيثًا في البحر الهادئ الوَادع ، تُمَهِّد لها سبيلَ الانزلاق مجاذيفُ تحرّكها سواعدُ قويَّة ، وما زالت تُمْعِن في السَّيْر إلى غايتها ، حتى لاحت « إيتاكا » للناظرين مع لألاء الصّباح .

فأرْسَى الملاَّحون السفينة في الميناء ، وكان « أوذيس » لا يزال يغطُّ في نومه ، فحملوه في حَذَر وعناية ، وأنزلوه بسَفْح شجرة زيتون فِضّية الورق ، ثم أنزلوا كنوزه وهداياه ووضعوها إلى جانبه وتركوه نائمًا .

وبينما كان « أوذيس » مستغرقًا في النوم ، نشرت الرّبَّة « مينرفا» حوله ضَبابًا كثيفًا ، فلما استيقظ من رُقاده تطلَّع إلى ما كان يَألَف من بِقاع فأنكَرَها ولم يعرِفْها ، وبدَتْ له الطُّرُق غيرَ الطُّرُق ، والغاباتُ غيرَ الغابات ، كأنَّما كانت غريبة عليه ، وكان هو غريبًا عنها ، فقال متنهِّداً :

– « وَيْلي من شَقِيّ تاعِس ! لقد وعَدَني «الفياكيون» بأن يُوصِلوني إلى « إيتاكا « فها أنا ذا الآن في أرضٍ مجهولة ، ولست أدري أين أخبِّئ كنوزي حتى لا يَسْلُبَني إيَّاها سُكّانُ هذه البلاد ؟ » .

واسْتَمرَّ يشكو من سوء حظه ومجهول مَصِيره ، حتى لاحت له الرَّبَّة « مينرفا » في زِيِ سيدةٍ جميلة جليلة ، تبتسم عيناها الزَّرْقاوان عن

مَعْدِنها السَّمْح الكريم ، وجاءت تجلس إلى جِواره بعد أن بدَّدت سُحُب الضَّباب التي كانت تُخْفِي معالمَ الأشياء عن عينيه ، ففاض قلبه بِشْراً وسُروراً حين أيْقَنَ أنه في « إيَتاكا » جزيرته المحبوبة ، فانْكَبَّ إلى الأرض يُقَبِّل تُراب بلده .

وشملَتْ فرحتَه غِلالةٌ من الكآبة حين نفَضَتْ له « مينرفا » أخبار «إيتاكا » وقصَّتْ عليه ما جرى فيها من حوادث في أثناء غيابه الطويل، وبَصَّرته بما يجب أن يفعله في سبيل أن يَسْتَرْجع مَلِكته ومَمْلَكته .

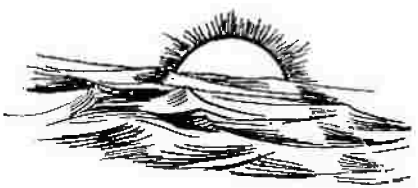

٧

ما أكْثَرَ الحوادث التي كانت جزيرة « إيتاكا » مَسْرَحَها ، منذ العَهْد البعيد الذي رحَل فيه « أوذيس » عنها ،وذهب ، يَخُوض غَمَرات القتال في بلاد طروادة .

فقد نشأ « تليماك » الصَّغير وتَرعْرَعَ في غِياب والده ، وأصبح فتًى يافِعًا فقي عُنْفوان الشباب ، وكان كلَّما طالت غيبةُ والده ، زادَتْ هُمومُه وأشجانُه لاضطراب الأحوال في مملكة أبيه .

كان جمالُ أمِّه الرَّائع ، وثَرْوَتُها الطَّائلة ، مَطْمَعَ الطَّامعين ، فما من زعيم ولا كبير إلا مَنَّى نفسه بأن يصبح زوجًا للملكة « ينلوب » ويغدو بذلك ملكَ البلاد وخليفة « أوذيس » فقد كانوا يقولون :

– « إن « أوذيس « لم يَعُدْ في عِداد هذا العالم ، و « تليماك « طفل عَزِيز لن يَحُولَ دون آمالنا وأمانينا » .

ولقد بلغت بهم الجُرْأة والصَّفاقَة أن ينتقلوا إلى قصر « ينلوب » نفسه ويُقِيموا به طاعِمِين شاربين من مؤن « أوذيس » ومخزونه ، ومَكَثوا على هذا الحال سنوات . وكانت وقاحتهم في مثل جشعهم سواء بسواء، فكانوا يحاصرونها كل يوم بطلب الزواج منها ، غير مكترِثين لما يبدوا عليها من حزن عميق وهمٍّ قاتل .

وشاءت « ينلوب » أن تُنْقِذ نفسها من هؤلاء الخاطبين فابتدعَت وسيلةً تُبْعِدهم منها ، ذلك بأنها وضعت في بَهْو القصر مَنْسَجًا كبيراً جداً ، أخذت تَحِيك عليه نَسِيجةً دقيقة الصُّنْع ، وكانت تقول لهؤلاء الطَّامعين في يدها ، الطَّامِحين إلى ثَرائها :

– « إذا فَرَغْتُ من هذه النَّسيجة ، سَمِعْتهم منِّي الجواب » .

وكانت في كل ليلة ، تَخْرُج من جَناحها في القصر ، متخفِّية عن أعْيُن الرُّقباء ، وتَفُكّ ما نسَجَت في وَضَح النَّهار ، حتى طالَ الأمَد وطالَ معه انتظارُ الخاطبين للجواب الموعود .

ومرّت السنوات طويلةً رَتِيبة ، ونما معها في قلب الأمّ والابن حُزْنٌ

ملأ منهما الْجَوانح .

وبينما كان « تليماك » جالساً ذات يوم عند باب القصر ، ينظر اشْمِئْزاز وكَرَاهِية ، إلى جَمْهَرة الخاطبين الذين كانوا متحلِّقين حول الموائد ، يأكُلون ويَشْرَبون صائحين مُعَرْبِدِين ، إذ وقَفَ عليه رجلٌ غريب ، يرتدي لِباسَ المُحارِبين في بَلَد بعيد . ولم يكن هذا الغريب إلاّ الربَّة « مينرفا » صاحبة العينين الزَّرْقاوَيْن ، وهي التي استرحمت الآلهة فسمَحَتْ بعودة « أوذيس » إلى بلده .

جاءت إلى « إيتاكا » وهَدَفُها أن تُقَوّي روح « تليماك » وتُذْكِي فيه نارَ العَزْم والشَّجاعة ، ولكنها أقبلتْ إليه في زِيّ جُنْدِي ، ولم تُقْبل في طَلْعَة الرّبَّة الجميلة ذاتِ الشعر الأشقر ، وصاحبة المَداس الذَّهبي .

فرَحَّب « تليماك » بالجنديّ الغريب ترحيبًا كريمًا ، وقادة إلى بَهْو القصر ، وخَفَّفَه من سِلاحه الثقيل ، وأجلسه على مَقْعَد جميل مُطَعَّم بالفضّة ، بعيداً من طُغْمَه الضُّيوف الثُّقَلاء المُعَرْبِدين .

ونادى الخدم ، فمَدُّوا السّماط للغريب ، وأتَوْه بألوانٍ شَتَّى من لذيذِ الطَّعام والشَّراب ، وكان الخاطِبُون في هذه الأثناء ، يزدَردون الطعام في جَشَع ونَهَم ، ويتبادَلُون أوْقَحَ المُزَاح والنّكات فمال « تليماك » على الغريب ، وقَلْبُه يَغْلِي بالسَّخْط والغَضَب وقال له بصوتٍ خَفِيض وهو يُشير إليهم :

– « إن هؤلاء الرّجال الذين يبدّدُون أموال « أوذيس « يظنُّون أن عِظامه قد ابْيَضَّتْ تحتَ وابِل المطر في جزيرة بعيدة . آه لو استطاع أبي أن يَعُود ، إذنْ لَهَرب هؤلاءِ الخَوَنة الجُبَناء حالما يَرَونه . فقُلْ لي أيّها الغريب ! يلوح أنك قادم من بلاد بعيدة ، أفلم تَلْتَقِ مرّة « بأوذيس « أبي العزيز ؟ » . فقالت له « مينرفاً » :

– « إن أباك حَيٌّ يُرْزَق يا فتى ، فلا يُخَامِرْك أيّ شكّ في هذا ، ولكنه أسيرٌ في جزيرة نائية ضاربة في عُرْض المُحِيط ، فلا تَيْأس فقد يَلُوذ قريبًا جدًّا بالفرار ويعود إلى وطنه ... فما أشْبَهَك به « تليماك » فَقَسَمَات وجهك هي قَسَمات وجهة النبيل ، ونَظَراتُك هي نَظَراتُه البرَّاقة بمخايل العِزّة والكرامة » .

فشَدَّ هذا الكلام من عزيمة « تليماك » ، ونَفَخَ فيه روحَ الشجاعة ، فراح يُفْضِي إلى « مينرفا » بما قام به أولئك الخاطبون من أعمال مُنْكَرة، ويَصِف لها بُخْلَهم وصَفاقَتَهم .

ثم أمدّت الرَّبَّة « مينرفا » الفتى « تليماك » بنصائحها فقالت له :

إن عليه أوَّلاً أن يدعوا مجلس الزّعماء ليُصدوا أمرهم إلى هؤلاء الخاطبين بمغادرة القصر والانَسحاب إلى دُورِهم ، ثم حَثَّته أن يَعْمِد ثانيًا إلى إعداد سفينة بعشرين مِجْذافًا تذهب إلى بلد سوف تُعَيِّنه له وتتقصَّى هناك أخبار أبيه ، فلابُدَّ أن تَرْجع منه بأنباء تسرّه ، وختمت حديثَها قائلة :

– « إنك فتى جميل قويّ ، فاجعل بَسالَتك تَعْدِل جمالك ، ومكّن الناس من أن يتحدَّثوا عن أعمالك الباهرة في مستقبل الأيام ، وكن لهم موضعَ إعجابٍ وموضوعَ ثَناء » . فقال « تليماك » :

– « إنك لتحدّثني حديث الأب لابنه ، وهَيْهات أن أنْسَى هذا الحديث ، وأن أغْمِط لك هذا الفضل » .

ثم رجاء من « مينرفا » أن تَمْكُث عنده ما استطاعت . وألَحَّ عليها أن تَقْبَل منه بعض الهدايا ، في حين أنه هي التي أهدت له أثمنَ ما يُهْدَي للفتي المقدام ، بعد إذ رَدَّت عليه قوّته وشجاعته ، فلما غابت عنه شعر « تليماك » أنه استبدل بإهاب الشّاب الخجول الهَيَّاب أجلادَ رجل قويّ باسِل شجاع .

وكان الخاطبون منهمكين بمَلاذهم وصَخَبِهم ، فلم يلتفتوا إلى غدو الجندي الغريب ورَواحِه ، بل كانوا مأخوذين بغناء بعض المغنَّين يُنْشِد ويَعْزِف على قِيثارته أناشيدَ حُلْوة شَجِيَّة تُشِيد ببطولَة الإغريق في حرب « طروادة » ، وترحّب بعودة الأبطال إلى أهلهم وبلادهم .

وسمعتْ « ينلوب » غِناءَ المغنِّي وعَزْفَه ، فنزلت من جَناحها في القصر وتردَّدَت قليلاً عند عَتَبة البَهْو ، ثم قاطعت المُغَنّي وهي تَنْشِج وتنتحب وقالت :

– « كُفّ عن الأغاني التي تُرَحّب بعودة الأبطال من « طروادة»

ولا تُرَجّعْها على سَمْع امرأة ما زال زوجُها غائبًا ، وما زالت تنتظر إيابه » فعَلّق « تليماك » على كلامها وقال بصوت جَهْوَرِيّ قوِيّ ما كانت لتعرفَه فيه :

– « أمَّاه لا تلوي هذا الشاعر على غنائه ، فإن لن تسمح الآلهة حتى الآن بعودة « أوذيس « إلى بلده ، فما سَمَحَت أيضًا بهَلاكه ، فلْنَدَع اليأس جانبا ، ولننتظْر رجوعه بإذن الآلهة ، فعودي إلى مَثْواك، ودَعيني أدبّر شؤوني ، فأن الآن سيد هذا القصر والآمر الناهي فيه» .

ثم وجَّه كلامه إلى الخاطبين بمثل هذه اللهجة القوية دون ارتباك ولا اضطِراب وقال :

– « لَكُمْ أن تُقيموا الولائم هذا المساء ، لكن لا ضجيجَ ولا فَوْضَى، وعليكم غداً أن تحضُروا مجلس الزُّعماء الذي سأدعو إلى عَقْده لنُقرّ أحد أمْرَيْن : إمَّا أن أكون سيداً في قصري ومملكتي ، وإما أن تستمرُّوا في تبديد أموالي وإنكار سلطاني » .

قُوبِل خطابُ « تليماك » بسَيْل من صَيْحات الغضب وقوارصِ الكَلِم، ولكنه لم يَحْفِل بها ولا أعارها أيّ جانبٍ من اهتمام ، ولما أوَى الخاطبون إلى مخادِعهم ، سار إلى مِخْدَعِه تسبقه إليه مربّيته العجوز، حامِلة بيدها مِشْعلاً يُنير له الطريق ، وانتظرت حتى خَلَع رداءه فَطْوَتْه وأزالت منه التجاعيد ، وعلَّقَتْه على المِشْجَب ، وخرجت تاركة «تليماك» ملتفًّا بِغِطاء من الصُّوف ، غير أن النُّعاس امتنعَ

عليه طويلاً ، وحَجَبتْه عن أجْفانه نصائحُ « مينرفا » وقد ظلَّ يتذكَّرها واحدة بعد أخرى .

واستيقظ « تليماك » على صَحْوَة الفجر ، فارتْدى ثوبَه ، وتقلد سيفه ، وأمر المُنادين بدعوة الرؤساء إلى الاجتماع ، فلما اكتمل عددُهم نزل إلى البَهْو وفي يده رُمْحٌ من الفولاذ ، وكانت « مينرفا » قد أضْفَتْ على قَسَماته من البَهاء والصَّباحة مما جعله يُشْبِه إلهًا من الآلهة ، حتى إن شيوخ الرؤساء فَسَحُوا له في الطَّريق وهو مُتَّجِه إلى عرش أبيه .

فقال رئيس من الرؤساء الأجِلاّء :

– « إن هذا المجْلِس لم يُعْقَد منذ أن رَحَل الملك « أوذيس « إلى «طروادة» وإني لأرى أن الذي دعانا إلى عَقْده هو لاشكّ رجلٌ نبيل عظيم، نتمنَّى له الخير والتَّوْفيق ، ونسأل الآلهة أن تحقق له قَصِيّ الأماني والآمال » .

ومثل هذه البداية زادت « تليماك » حَمِيَّةً وشَجاعة ، فقد كان يتَّقد حَماسة لأن يَنْفُض ما يَجيش في صدره من شجون ، فتكلم من قوة واندفاع ، ووصف ما يُخالِجُه من حزن على غياب أبيه ، واستنكر خيانة الخاطبين وصَفاقتهم وولائمهم المُنْكرة ، وبَيَّن للمجتمعين كيف بُدِّدت أمواله ، وأهِينت أمه ، ولما لم يَعُدْ يُطيق الصبر على ألمه وغضبه ، أنْذَرَ جمهرة الخاطبين بمغادرة القصر .

وخَيَّم الصمت على المجْلِس حتى قَطَعَ حَبْلَه أحد الخاطبين

فقال :

– « إن المَلُوم في هذا إنما هي الملكة « ينلوب» فقد ظلَّت سنواتٍ تخْدَعُنا وتقول لنا : « عندما أفْرَغ من نسيجي فسوف أعْلِمكم بمن أخترته منكم زوجًا لي « وها نحن أولاءِ ننتظر جوابها على غير جَدْوَى... ولقد علمنا الآن من احدي الوصيفات أنها تفُك في الليل ما تَنْسِجه في النهار، فيجب أن تكُفّ عن هذا الخداع وتعلن لنا على من وقعَ اختيارها ، ولسنا بتاركين قصرها ما لم تصرح باسم الذي ترغب أن يكون زوجًا لها » .

وحاول « تليماك » أن يستدِرّ عَطْف الخاطبين ، فرقَّت لهجته ولَطُف كلامه ، ولكنهك لم يستنيموا لوَداعَتِه فصاح فيهم :

– « إن تُؤْثِروا أن تلتهموا ثروة أبي غير حاسبين للقصاص حساباً، فاستَمِرُّوا فيما أنتم فيه ، أما أنا فسوف أشْهِد عليكم الآلهة حتى يَجْزِيَكم « جوبتر « على أعمالكم جزاءً وفاقاً ، فتنالوا على جَرَائمكم ما تستحِقّون من عِقاب » .

وبينا هو مستمِرٌّ في الكلام إذْ هَبَط من قِمَّة الجبال نَسْران أخذ يُحَلِّقان فوق رؤوس الخاطبين ثُمَّ هجم كلٌّ منهما على الآخر في غضبٍ وشراسة، وهو يحاول أن يُنْشِب مخالبة الحادّة في عُنُق خَصْمه وجَنَباته، حتى إذا انتهت المعركة بينهما ، أطلقا أجنحتهما للريح وغابا في الأفُق . فصاح أحد الرؤساء الشيوخ إزاءَ هذا الحادث الغريب وقال :

– « ليس هذا إلا فألاً يَرْمِز إلى عودة « أوذيس « والويل عندئذ للخاطبين فعلينا أن نَكْبَح جِماع هؤلاء الحَمْقَي قبل عودته الملك ، خَشْيَةَ أن نُساقَ نحن أيضًا معهم إلى السقوط والخِذْلان » .

فقاطعه الخاطبون في حِدّة وغضب وقالوا :

– « عُدْ إلى منزلك أيها الشيخ الفاني ، وانْشُرْ نُبُوءاتك بين أطفالك... إن « أوذيس « قد هَلَك ولا شك بعيداً من وطنه ، ليتك مِتَّ معه ، إذن لما وقفتَ بيننا تتفَوّه بتُرَّهاتك ، وتتملَّق « تليماك « استهداء لبعض عطاياه » .

وأضافوا فقالوا موجّهين الخطاب إلى « تليماك » :

– « سنبقى في قصرك ما دامت « ينلوب « تُرْجئ زواجها ، ولن تحول خُطَبُك بيننا وبين العيش الهانئ الرَّغْد في ظلال مِيراثك » .

ولم ينتصر للفتى « تليماك » إلا رجلٌ واحد هو الحكيم « منطور»، فقد أهاب بشجاعته ونَدَّد بالخاطبين ولما يرتكبونه من أعمال العُنْف، كما عَنَّف الشعب على جُبْنه وخِيانته ، غير أن خطبته لم تزحزح الخاطبين عن موقفهم وقرارهم ، بل راحوا يُمْنِعون في الاستهزاء بالفتى « تليماك » حين أخبرهم أنه يُزْمِع أن يُجَهّز سفينة يَذْهَب لها إلى البَحْث عن أبيه . فصاحوا ساخرين :

– « سيزيدنا عَناءً في اقتسام ميرثة فهو هالك لا محالة مثل أبيه » .

وارْفضَّ المجلس ، وعاد الخاطبون إلى مباهجهم في القصر ، وسارَ « تليماك » إلى الشاطئ وجَثَا على الرمل الرَّطْب وقال :

– « أيّها الغريب النبيل الذي جاء أمس يحدّثني ، إني لأعْرِف الآن أنك أحد الآلهة ، فأتوسَّل إليك أن تخبرني كيف أستطيعُ الحصول على سفينة تنقلني إلى البحار النائية بَحْثًا عن أبي ... إني فتى وحيد لا عون ولا لي ولا سَنَد » . فتراءت له « مينرفا » على الفور وقالت له :

– « كُنْ شُجاعًا وكن خير ابن « لأوذيس « العظيم ، فعَسيرُ الأمور غيرُ عَسِير على القلب الباسل ، فعد إلى القصر وتغَلْغَلْ بين جَمْهَرَة الخاطبين وأعِدّ سرًّا زادَ السفر ، وعليَّ أنا أن أوفّر لك سفينة من أفضل سفن « إيتاكا « وأن أزوّدها بأمْهَر الملاَّحين من أولى البأس والعزم » .

فاتّبع « تليماك » هذه النصائح ، وعاد إلى القصر ، وكان الخاطبون يُعِدّون العُدَّة لمأدُبة فاخرة ، ويذبحون الذَّبائح في صَحْن الدار ، فلما رأوه مُقْبِلا إلى القصر ، استقبلوه بالسُّخْرية والازدراء وقالوا :

– « هو ذا « تليماك « الذي يريد أن يَعْصف بنا ، هو ذا الخطيب المِصْقَع ، والفتى المتَعَجْرف ، هو ذا « تليماك « الهائل ! » .

وقال شابٌّ منهم صَفِيق جَرئ :

– « إنكم لا تعرفون فيما يفكر وماذا يُدَبِّر ... إنه سوف يَسْعَى إلى «إسبرطة» ويجئ منها بِعصابة من القَتَلة تنتقم له ، بل إنه سيعود

من أسفاره بسُمُوم ناقعة يَصُبها في كؤوسنا ويقضي علينا جميعًا » .

فتخلّص « تليماك » من هذه الطُّغْمَة الشِّرّيرة ، ومَرَّ بها نازلاً إلى القَبْو الذي تجمَّعت فيه كنوز أبيه ، فمن صناديقَ مُقْفَلَة تحتوي على آنية من الذهب والفضّة وثمين الثياب إلى أكياس من الزّاد محشوَّة بمختلف الأصناف ، إلى دِنان مملوءة بالخمر والزيت ، وكانت أبواب هذا القَبْو مُقْفَلةً ليلَ نهار ، وكانت المربِّية العجوز هي الحارس الأمين على هذه الكنوز .

فطلب إليها « تليماك » أن تُعِدّ له زاداً للسفر وقال :

– « عندما تَأوى أمي الليلة إلى فِراشها ، فسأحْضُر إليك ، وآخذ ما أعدَدْت ، فقد نوَيْت أن أرحل على الفور بَحْثًا عن أبي » .

فلم تمالك المربِّية العجوز عن أن تَذْرِف سَخِينَ العَبَرات وقالت :

– « لا تسافِرْ يا ولدي فأنت ابننا الوحيد الذي نُحِبه ونَرْعاه . إن أباك « أوذيس « قد مات ، فماذا تستطيع له لو جُبْت البلاد وتقصَّيْت البحار ؟ ولعَلَّ سفرك يكون مَجْلَبَة للجديد من الكوارث ، ولعل هؤلاء الأشرار يغتنمون فرصة غِيابك فُيْمعِنوا في الشَّرّ والأذى ، فلا تَرْحَلْ وابْقَ إلى جانبنا ، فليس من الحكمة أن تُعَرّض حياتك للخطر على غير طائِل» . فقال « تليماك » :

– (هَوّني عليك يا مربِّيتي العزيزة ، فما اتّخذت أنا وحدي هذا

القَرار ... إنه الرّبَّة « مينرفا » هي التي أوْعَزَتْ إليّ بأن أسافر ، فلا خوف عليّ إذن من سوء المصير ، فعِديني يا عزيزتي ألاّ تُطْلِعي أمْي على هذا السفر ، حتى لا تَسْكُب الدَّمْع ولا تَذْبُل نَضارة وجهها الجميل » .

وكانت " مينرفا " في هذه الأثناء ، قد عَثَرت على السفينة المنشُودة فتنكَّرَتْ في زي « تليماك » واستعارَتْها من صاحبها . ولما هَبَط الليل أشاعت النعاس في جُفون الخاطِبين فغَرقوا في سبُاتٍ عميق . ثم قادت « تليماك » إلى الشاطئ فإلى السفينة التي أعدَّتْها له وقد تفرّق الملاّحون الأشداء في أنحائها ، واسْتَقَلّ كلٌّ بمكانة من القِيادة فيها .

فشاعَ السُّرور في وجه « تليماك » وأرسل بعض الملاّحين إلى القصر يأتونه بأزْواد السفر ، وما هي إلا ساعة وبعض ساعة حتى أقْلَعت السفينة و « تليماك » جالسٌ إلى جِوار « مينرفا » ، والنسيم العليل يَنْفُخ القُلُوع ويثُير الخفيف الهيِّن من الأمواج ، ورُغاء الزَّبَد يتلاطَم تحت سُكّان السفينة . وما زالت هذه الفُلْك تجري مَجْراها على بحرْ هادئ وديع ، حتى بدَّدت أشِعَّة الفجر حَلَك الظلام .

ولم تكد الشمس تلوحُ في الأفْق ، وتنبسط أشعَّتُها الذهبية إلى الغامِر والعامِر من هذا الكون ، حتى ألفت السفينة مراسِيَها في بعض الشواطئ ، ونزلتْ منها « مينرفا » يتبعها « تليماك » ، فاستقبلهما زعماء البلد استقبالا كريمًا ، ولكنهم كانوا يَجْهُلون مصيرَ البطل « أوذيس »

بعد حصار « طروادة » .

فعَهِدت « مينرفا » إليهم في الفَتى « تليماك » وتركته تَحت ظِلال رعايتهم وعنايتهم ، ثم تحوَّلت فجأة إلى صَقْرٍ كاسِرْ ، وطارت سابحةً في الفضاء وعيونُ القوم تنظر إليها في ذُهُول ودَهَش .

وملأت هذه الأعجوبة قلوبَ الحاضرين بالخوف والفَزَع ، فأحاطوا « تليماك » بالحَفاوة والإجلال ، بعدما تَبَيَّن لهم أنه مخلوقٌ تَرْعاه الآلهة وتحميه .

وبينما كان « تليماك » يَجُوب الأقطار والأمصار ، باحثًا عن أبيه لَحَظَ الخاطبون غيابه فظَنُّوه رَحَلَ يُمَتِّع نفسه بالقَنْص والصَّيْد ، إلى أن جاء إلى القصر يومًا صاحبُ السفينة التي استعارتهاَ منه « مينرفا » وهي في زيّ « تليماك » ووَقَف على القوم وقال متسائلاً :

– « متى يعود « تليماك « فأنا في حاجة إلى سفينتي » .

وعَلِم الخاطبون أن « تليماك » قد أبْحَر على أسْرَع سفينة في الجزيرة ، بصُحْبة عشرين شابًّا من نُخْبَة الشبَّان الأشِدّاء ، فأرْغَوْا وأزْبَدُوا ، وتملَّكَتْهم سَوْرَة شديدة من السُّخْط والغضب .

ثم هُرعُوا يَسْتَقِلُّون سفينةً قويَّة ، وكَمَنُوا بها في مَضِيق عند مَدْخَل ميناء « إيتاكا » وقد عزموا أن يَقْتُلوا الشَّابّ « تليماك » حينَ يعود إلى البلاد .

وعند ما عَلِمَت « ينلوب » بغِياب ابنها ، كاد قلبُها يتمزَّق بأساً

وهَلَعًا عليه ، فبكت بُكاءً مُرًّا ، وانْحَنتْ باللَّائمة عل وَصِيفاتها . وعنَّفَتْهُنَّ على أن أخْفَيْن عنها أمرَ رحيله . فقاله لها المربّية العجوز :

– « لك أن تَحْرمني نِعْمةَ الحياة إذا شئت يا سيّدتي ، فأنا وحدي مَنْ كان يعلم برحيله ، ولقد استحلفني سيدي « تليماك « أن أكتُم عنك الخبر حتى يَجنّبك الحزن والأسى ، ولكن هدّئي من رَوْعك يا سيدتي ولا يستبدَّ بك القلق والاضطراب عليه ، فالرّبَّة « مينرفا» تحميه وسوف تُعيده إليك آمنًا مطمئنًّا » .

فرطَّب هذا الكلام خاطرَ « ينلوب » وسكَّن بَلْبالَها ، ثم أدْرَكَها النّعاس فنامت ، وبينا هي غارقةٌ في نومها ، تراءَتْ لها « مينرفا » في الحُلْم وأخبرتها أن « تليماك » سوف يَرجِع سالمًا مُعافى ، فاستعادت « ينلوب » رباطه جأشها ، وانتظرت عودة ابنها الحبيب بقلبٍ مُفْعَم بالأمل والرّجاء .

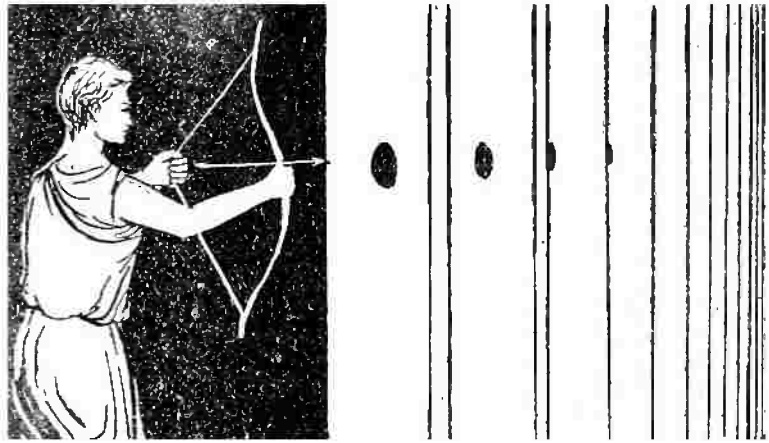

٨

نعود الآن إلى الشَّاطئ الذي تركنا فيه « مينرفا » تجاذب « أوذيس» أطرافَ الحديث ، وتَرْوي له هذه الأحداث التي بسطناها في الفصل السابق ممَّا كان يجهله ولم يخطُرْ له على بال .

وكان أوّل ما اهْتَمَّت به الرّبَّة « مينرفا » هوْ أن تضَع في مكانٍ أمين ، جميعَ الكنوز التي أتى بها « أوذيس » من بلاد « نوسيكا » وما حَفَلت به من ذهبٍ وفضّة وثياب مُوَشَّاة ، فجمتعها كلَّها في مَغارة مُظْلمة .

ولما انتهتْ من هذه المهمَّة ، مسَّت ملك « إيتاكا » بعَصاها

السَّحريَّة، فسقط على الأثَر شعره الذهبي ، وغامَتْ نظراتُ عينيه ، وتجعَّدت قَسَمات وجهه ، وتقوَّسَتْ كَتِفاه ، وارتخت مفاصل فَخذَيْه، وبدت عليه مظاهر شيخ فانٍ حطَّمَتْه الأيام ، وانقلبت كذلك ثيابه الأرْجوانِيَّة المطرَّزَة بالفضّة ، إلى أسْمالٍ يعلوها جِلْدُ أيِّل قديم العهد منحوت الشعر ، فقالت له « مينرفا » :

– « أذهب أوّلاً إلى راعيك الأمين « إيماوس » الشيخ ، الضّارب هو وأغنامه بقمة الجبل ، والمقيم على عَهْدك والوفاء لك ، واسْمَعْ منه كل ما يقصّه عليك ، وسأذهب أنا في هذه الأثناء باحثةً عن « تليماك » راجعةً به إليك » . فقال « أوذيس » .

– ما ضَرَّك وأنت العالمة بخفايا الأمور ، لو كنت بَصَّرْته بالعواقب، ومنعته من أن يرتاد مَتاهات البحار بعيداً من أهله وذويه ! فقالت «مينرفا » :

– اطمَئِنَّ بالاً واطْرَحْ جانب القلق عليه ، فالصّعاب مَصْنَعُ الرجال، ولسوف أحْبِط كل شَرَك يَنْصُبه له هؤلاء الخاطبون المستهترون ، وأمكّنه منهم بنصرٍ مُبين » .

وغابت « مينرفا » بعد ذلك عن نظره ، وسار هو في طريق الجبل .

وكان الراعي الشيخ يسْكُن كُوخًا مصنوعًا من أغصان الشجر المتشابكة ، تقوم على مَقْرُبة منه حَظائر الماشية ، ويحيط بهذا كله سُور مبنيّ على جذوع شجر السِّنْديان .

وكان يُعِين ذلك الشيخ على عمله ، ثلاثة من الغِلْمان يحرُسُون القُطْعان ، ويسُوقونها إلى المراعي ، وكان الخاطبون يسلبون منها كل يوم بضعة خِرْفان يُعِدّها لهم الطهاة ألوانًا شهيَّة من الطعام ، ولقد استطاع الراعي الأمين مع هذا ، أن يَسْهَر على قُطْعَانه ويحتفظ منها بالعدد الضَّخْم ، ويسهر معه عليها أربعةٌ من كلاب الحِراسة ضارية العيون حديدة الأنياب .

اتَّجه « أوذيس » إلى حظائر الماشية وهو يصعد في درب وَعْرٍ من دُروب الجبل ، فأنكرت الكلاب منه زيَّه وأطماره ، ونبَحَتْ في وجهه نباحًا شديداً ، وهَمَّت بالأنقاض عليه ، ولولا أن هُرع الراعي الشيخ إليه ، يحميه منها ويصدُّها عنه بسيل من الحجارة والوعيد ؛ لمزَّقَتْه إرْبًا إرْبًا ، وبعد أن ابتعدت الكلاب من فريستها ، وهي أشدُّ جَلَبَة ونُباحًا التفت الراعي إلى « أوذيس » وقال له :

– لو كانت كلابي قطَّعتك شِلْواً شِلْواً ، لما وجدتُ إلى العَزاء عنك سَبِيلاً ، فقلبي طافح بثقيل الهُموم والأشجان ... إن سيِّدي المحبوب قد اضطَّرتَّه الأحداث إلى أن ينتقل في البلاد النائية ، فلا نَعْرف له مُسْتَقرًّا ، وأنا هنا الحارس على قُطْعانه ، ولشَدَّ ما يُحْزِني أن أراها طعامًا لسواه .

وقاد الراعي زائره إلى الكوخ ، وهو يحدّثه بمثل هذا الكلام، وفَرَشَ الأرض بطَبَقة كثيفة من ورق الشجر ، غطَّاها بجِلْد ماعز

وَحْشيّ ، ورجا منه أن يجلس فوق هذه المقعَد المُرْتَجَل . ثم خفَّ إلى الحظائر ، وانتفى منها حَمَلين ذبحهما وشَواهما وقدَّمهما، إلى « أوذيس » وقدّم معهما شرابًا أحْلَى من العَسَل .

وبينما كان « أوذيس » يأكل ويشْرَب مستردًّا قواه ، كان الراعي يقصّ عليه حوادث القصر ، ويصف له المآدب التي يُقيمها الخاطبون وعدد ما التهموه ويلتهمونه من خِرْفان ومَعز .

أصْغَى « أوذيس » إلى حديث الراعي في صمت وسكون ، وهو يفكّر في الوسيلة التي سيقتصّ بها هؤلاء المتطفّلين الرُّقَعاء المنهومين ثم رَجَع لنفسه وسأل محدّثه قائلاً :

– ما اسم سيّدك إني رجل كثير الرحل فقد أكون التقيتُ به في بعض أسفاري « فقاطعه الراعي وقال :

– ما من صُعْلوك متشرّد ، يَنْزل بجزيرة « إيتاكا » إلاّ ذهب توًّا إلى سيدتي « ينلوب » وقصَّ عليها الأكاذيب ، زاعمًا أنه سَمِعَ بأخبار سيّدي ، فتستقبله سيدتي استقبالاً حَسَنًا ، وتَطْرَح عليه مختلف الأسئلة ، ثم تُجْهِش بالبكاء منتحبةً على زوجها المفقود ، ولو منحك بعض الناس أيّها الشّيخ ِمعْطفاً جديداً لاخترعت أنت أيضًا روايةً من الرّوايات ، وصدّعت بها سَمْعَها .. إن سيّدي قد غَرق لا محالة في بعض أسفاره ، وهَيْهاتَ أن أجِدَ رجلاً مثله طّيب القلب نبيل الخِلال».

فقال «أوذيس » :

– أقْسم لك أيها الصديق ، إن سيّدك سيعود ، ففي آخر هذا الشهر أو في الأيام الأولى من الشهر القادم سيرجع ويعاقب كلّ مَنْ ازْدَرَي شأن زوجته المحبوبة وابنه العزيز .

واستمرّ الحديث بينهما ممدودَ السَّبَب ، حتى عاد الغِلْمان الثلاثة من المراعي ، ولما هَبَط الليل أعَدَّ الراعي طعام العَشاء ، وحرص على أن يختصّ الشيخ الغريب بأطيب قِطَع اللحم ، وعندما حان وقت النوم أعطاه مِعْطفًا ثقيلاً يَتَّقْى به غائلةَ البرد ووَطأة الرياح ، وذهب هو ينام قربَ قُطْعانه حتى يحميها من هَجَمات اللصوص ووثَبات الوحوش .

وقبل أن يستسلم « أوذيس » إلى سلطان الكَرَى ، شكر الآلهة على أن احتفظت له بخادم وَفِي مُخْلص مثل هذا الراعي .

وكانت « مينرفا » في هذه الأثناء تجِدُّ في البحث عن « تليماك » فلما عادت به إلى الجزيرة وبدأت سفينته تقترب من السَّاحل ، كان الظلام شديد الحَلَك

، فمرّت بالمَضيق الذي تكْمن عنده سفينة الحاطبين دون أن يراها أحد .

ونزل « تليماك » وفْقًا لأوامر « مينرفا » بمكانٍ زاخر بالغابات ، وطلبه إلى رفقائه أن يتَّجهوا إلى الميناء ، ويُلْقُوا المراسي فيه .

وما كاد يطأ الأرض ورُمْحُه في يده ، حتى أخذ يصعد في الدَّرْب الوَعْر الذي يُفْضي إلى كوخ الراعي « إيماوس » .

وكان الراعي الشيخ و « أوذيس » منْهمكين بإعداد طعام الإفطار فطَرَق مِسْمَعَهما وقع أقدام ، فالتفت « أوذيس » إلى مصدر الصوت ، فاكتحلت عينيه بمرأى شابٍّ وَسيم ، فارع القوام ، أشقر الشعر ، بَرَّاق العينين ، نَبيل المَظْهَر ، يتقدَّم إليها في خُطُوات تدُلّ على العِزّة والكرامة ، فقال « أوذيس » للراعي :

– لابُدَّ أن يكون هذا الشابّ صديقًا من الأصدقاء ، فكلابك ترحّب به ولم تقابله بالنُّباح .

فرفع « إيماوس » عينيه ، ووقع نظره على « تليماك » فسارع إلى لقائه وهو يصرخ من الفرح وقال :

خَشِيتُ إلا أراك ثانية يا نورَ العين ، فتعالَ وادخل الكوخ واسْمَعْ دقَّات قلبي وهو يخفق سروراً وبِشْراً حين تطالع عيناي وجهك الصَّبيح .

وبعد قليل ، كان الرجال الثلاثة يتناولون ما تيسَّر من طعام الإفطار، ولقد أحاط « بتليماك » أباه « أوذيس » بمظاهر الرعاية على جهله به ، وعلى ما كانت تبديه أطمار ذلك المتسوّل الشيخ من فاقة وبؤس ، فاختلجت جوانح « أوذيس » طَرَبًا ، وسَرّه أن ينضمّ صدر ابنه على مثل هذا القلب الكريم .

ثم طلب « تليماك » من الراعي الشيخ أن يطير إلى « ينلوب » ويبلّغها أنه عاد مشمولاً بالسَّلامة والعافية ، وفي أثناء غيابه دخلت « مينرفا »

الكوخ متوارية عن نظر « تليماك » ، فأشارت إلى « أوذيس » أن يخرج من الكوخ فخرجت وقالت له :

– حان وقت العمل ، وآن أن يعرفك ابنك .

ثم مسَّته « مينرفا » بعَصاها السِّحْرية فانقلب البطل إلى حاله الأولى، واستعاد بَشَرَته الملوّحة بطِلاء الشّمس والرّيح ، ولحيته المجعَّدة التي تظّل ذقنه ، وشعره المحلّق الذي يتوّج رأسه ، ولاح بفاخر ثيابه وإشراق وجه كأنه منحدر من صُلْب الشمس .

وعاد إلى الكوخ بذلك الظهر الأنيق العظيم ، فحَسِبه « تليماك » لأول وَهْلَة إلهًا من الآلهة فقال له « أوذيس » :

– لست يا « تليماك » أحد الآلهة فإنما أنا أبوك الذي ظننته في عداد الأموات .

ثم سارع إليه يعانقه في شغَف وشوق ، مُطْلقًا لعَبرات العِنان فسالت غزيرةً على خدَّيْه ، في حين صاح « تليماك » صَيْحَة الفرح بعد إذْ عرف أباه ، وذَرَف هو أيضًا هَنِئ الدُّموع .

ومَكَث الوالد وابنه متعانقَيْن طويلاً ، ثم قَضَيا النهار يتبالادن طريفَ الأحاديث ، وأخذ بعد ذلك يتشاوران كيف ينتقمان من أولئك الحاطبين المناكيد .

ورَجَع الراعي إلى مَقّره بعد إبلاغ رسالته وعُنِيت « مينرفا » بأن تُعِيد إلى « أوذيس » مظهر المتسوّل العجوز فرَوَى للفتى « تليماك » أن الحاطبين

قد عادوا مَغِيظين مُحْنَقِين بعد ما أخطأوه ، وأنهم آلَوْا أن يقتلوه .

فابتسم « تليماك » عند سمَاعه هذا الخبر ، وحرص هو وأبوه ألاَّ تْفلِت منهما كلمة تُميط اللِّثام عن سرّهما المكنون .

وفي فجر اليوم التالي ، التقط « تليماك » رمحه وقال للراعي وهو يتأهَّب للرحيل .

– إني ذاهب إلى القصر حيث تنتظرني أمي ، فَقُدْ هذا العجوز إلى المدينة لعلَّه إذا استدَرّ فيها أكُفّ المسحنين ، يجمع له بعض المال فيستعين به على مَعاشه .

واستمرّ « أوذيس » يُوهِم الراعي أنه ذلك المتسوّلِ فقال :

– إنك لَعَلَى صَواب ، فالتسوُّل في المدينة أجْدى منه في الريف ، فضلاً عن أن الريح العنيفة في الجبال يسهل عليها تمزيق رَثّ ثيابي ، ولسوف أسْلُك طريق المدينة حالَمَا تَطْلُع الشمس» وانحدر «تليماك» من الجبل إلى المدينة ، وذهب تَوًّا إلى القصر ، فما إن لمحته المربّية العجوز حتى أخذت تردّد صَيْحات الفرح ، فسمعتها « ينلوب » وهُرعت إلى البَهْو الكبير ، فلما وَقَعَ نظُرها على ابنها قالت له والدُّموع تنسكب من مآقِيها :

– ها أنت ذا قد عُدْت إلينا يا ولدي الحبيب ، ولَكَمْ خَشِيت إلاَّ أراك أبداً .

فطوَّقَتْه بذراعَيْها في عِناقٍ طويل ، وقلْبها يكاد يُسْمَع خَفَقانه .

وتركها « تليماك » تُرْوِي منه غليل الشَّوق ، ثم ذهب والرّمْح في يده وكلباه يتبعانه ، إلى القاعة التي يتجمَّع فيها الحاطبون ، فاستعانوا عند رؤيته بالرّياء والنِّفاق ، وهَبُّوا يرحِّبُون به أجملَ ترحيب فازدري البطل الشاب تحيَّتهم ، والتفت إلى الحكيم « منطور » يَسْرُد عليه أبناء رحلته .

وكان « أوذيس » في تلك الآونة يقترب من قصره في زِيّه الحقير حاملاً كيسَه العَتِيق على كَتِفَيْه ، وكان الناس إذا مرّ بهم احتقروه ، وهزأوا به وبأطماره ، ولكنه كان يَكْظِم غيظَه وغضبه ، ويستمرّ في سيره حتى وصل إلى أبواب القصر .

رآه « تليماك » فأرسل إليه بعض قِطَع من اللحم أكلها في نَهَم وشَرَه ، ثم دخل القاعة وطاف بالموائد يَسْتَنْدي أكفَّ الحاطبين ، فكان يعضهم يرمون له بالفُتات ، وكان بعضهم الآخر يَنْهَرُونه ويطردونه ، واحتَدَّ واحدٌ منهم عليه ، فأمسك بمَقْعَد صغير وضَرَبه به على أمّ رأسه ، فكَظَم « أوذيس » غيظَه ، وعاد إلى باب القصر ، وتخفَّف من كيسه الذي ملأه بالفُتات فوضعه على الأرض .

وأقْبَل في تلك اللحظة متسوّل آخر ، معروف في « إيتاكا » كلها بصَفاقته وجَشَعه ، ومتعوّد أن يستفيد من ولائم الحاطبين ، فأراد أن يطرُد « أوذيس » قائلاً له :

– اذهب أيّها الشيخ فهذا المكان مكاني ، وإلاّ حطَّمْت رأسك

بقَبْضَيَ ، ونَثَرْتُ أسنانك فوق التراب .

وسَرَّ الخاطبين أن يَشْهَدوا معركة تَنْشَب بين المتسوِّلِيْن ، فشرعوا يُثيرون أحدهما على الآخر غير أن المعركة لم تستمر إلاّ لحظةً خاطفة ، فقد كال « أوذيس » لغريمه ضَرْبةً واحدة حطَّمت فَكَّن ، ثم سَحَبه من قدميه إلى العَتَبة ، وأسنده إلى الحائط والدَّمُ يَسِيل منه وقال له :

– امْكُثْ هنا لِتْخِيف الكلاب التَّائهة والخنازير .

سرّت هذه المعركة جَمْهَرة الحاطبين ، فأغدقوا على « أوذيس » بقَدْر أكبر من فُتات وليمتهم ، ثم تفرّقوا عند المساء آوين إلى مَخادعهم، وتاركين « تليماك » وحده مع « أوذيس »

خَلاَ الجوّ للأب واربن فأسْرَعا في نَزَع الأسلحة التي تزيِّن جُدْران القاعة ، وجَمَعا ما كان عليها من سيوف ورِماح وحِراب وتُروس وخُوذات،وأخْفَياها في قَبْوٍ من أقْبِيَة القصر ثم أوى « تليماك » إلى مِخْدَعه .

وبَقى « أوذيس » وحده في القاعة يشاهد عَدَداً من الخادمات يُنَظِّفْنَها من بقايا الوليمة ، وجاءت « ينلوب » إليها في تلك اللحظة لتراقب أعمالُهنّ ، فزادت الموقِد حَطَبًا ، وجلست قربه تستدفئ ، فلمَحَت أوذيس وظنَّته أحد المتسوّلين ، فحدّثته حديثًا رفيقًا كلهُ حَدَبٌ عليه وعَطْف ، ولما رأته طاعنًا في السنّ ، مجهوداً مُتْعَبًا ،

أمرت المربّية العجوز بأن تغسِل له قدميه وتُعِدّ له سريراً ينام عليه .

وكان « أوذيس » قد ذهب إلى الصيد منذ سنوات طويلة ، فأثَرَ وَعْلاً وبينما كان يُحاوره ويُطارده ، هجم الوَعْل عليه وضَرَبه بقَرْنِه في ساقِه ، فأحْدَث فيها خَدْشًا كبيراً ، فلما راحت المربّية العجوز تغسل له قدمَيْه ، لمَحَت أثَرَ النَّدْبَة في ساقِه ، فعرفت سيّدها وارتجفت يداها من شدّة الاضطراب ، فأفْلَت الطَّسْت منها ، ثم أخذت تتفرس في وجهه طويلاً ، وما لبثْ أن صاحت قائله :

– إنه « أوذيس » إن سيّدنا قد عاد أخيراً .

فأشار « أوذيس » إليها بأن تلتزم الصَّمت فسكتت ، وكانت «مينرفا» في هذه الأثناء قد حوّلت أفكار « ينلوب » إلى آفاق بعيدة فلم تسمَعْ شيئاً ، وقبل أن تترك « ينلوب » القاعة آوية إلى مخْدَعها التفتت إلى « أوذيس » وقالت له بلهجة حزينة :

– أشْعُر ويا للأسف أني أقترب من النهاية ، فعمَّا قريب يذهب بي أحد الحاطبين بعيداً عن هذا القصر ، ويفوز بي منهم من قد يتشبَّه «بأوذيس» بطل الأبطال وسيّد الرُّماة .

أتدري ماذا كان يفعل إذا أراد أن يتسلَّى ؟ أتَرَى هذه الأعمدة الاثنى عشر المثقوبة ؟ إنه كان يرميها بسهم واحد يخترقُها جميعًا ويَنْفُذ منها ، ولقد قلتُ لجَمْهرة الخاطبين الذيِن يحومون حولي ، أني سأتزوّج الرجل الذي يستطيع منهم أن يقوم بِمِثْل هذا العمل البارِع .

وعلى هذا فسوف أتْبَع الفائز ، وأهْجُر هذا القصر الذي عِشْت فيه أسعَد أيام حياتي مع خير الأزواج . فقال لها المتسوّل :

لا تخشَى بأسًا أيتها الملكة ، فسوف يحضُر « أوذيس » المباراة، ويسكون هو الذي يخترق سَهْمُه الأعمدة الاثنى عشر بِرَمْيَةٍ واحدة .

وعادت « ينلوب » إلى مِخْدَعها وهي تتمنَّى أن تحقَّق نُبُوءة المتسوّل العجوز ، فهبَطت « مينرفا » إليها ، وأغمضتْ لها أجفانها ، ووهَبْتها مع النعاس نِعْمة النِّسْيان .

وكاد « أوذيس » وهو يفكّر في طرائق ثأره ، يقضي ليلةً ساهِدَة مؤرّقة ، لولا أن وافته الرّبَّة « مينرفا » ، وأمرَّتْ أناملَها القدسية على معاقِد أجفانه .

وأقْبَلَ الحاطبون في اليوم التالي إلى القصر ، وأمطروا المتسوّل العجوز بوابل من شتائمهم وهُجْر كلامِهم ، فاغتاظ « تليماك » وتوعَّدهم، فما ازدادوا بوعيده إلا ضَحِكًا وسُخْرية ، ولك قطع عليهم استهزاءهم ومُزاحَهم الفَجّ ، صوتُ رجل غريب ووقف عليهم وقال :

– أرَى الليلَ يَهْبِط عليكم ويوشّحكم بغلالته ، وأرى هذه الجُدْران مصبوغةً بدمائكم ، وأسمع أنينَكم يتردَّد في أنحاء هذا القصر .

فأثارت هذه النُّبُوءة القاتمة فنون عَبَثهم ، فقَهْقَهُوا ضاحكين

ما شاء لهم وسَلَكوا قائلها في عِداد المجانين .

وانقطع الضَّحِك فجأة حين دخلت « ينلوب » القاعة حاملة قوسًا كبيرةً ستكون الفَيْصَل في تحديد مصيرها ، فوضعَتْها بين أيدي القوم، وخفَّت راجعة إلى مِخْدعها ، وتذكارُ زوجها يملأ قلبَها ويُدْمِع عينيها .

وحاول الحاطبون ، واحداً بعد آخر ، أن يشدُّوا القوس جاهدين ما وَسِعَهم الجهد ، ولكن ذهبت محاولاتهم سُدًى ، فتوهموا أن جفاف خشب القوس هو السبب في إخْفاقهم ، فعَمَدوا إلى تَطْرِيَتة ، ومسحوه بالدُّهْن السَّاخن فما ظَفِروا منه بطائل .

فنهض عندئذ « أوذيس » بأسْماله البالية ، ومِزَق ثيابه ، وتناول القوس وشَدَّها في غير عَناء ظاهر ، فاهتَزّ الوَتَر ، ورَنَّ تحت أصابعه الفولاذية ، وانطلق منه السَّهْم يخترق الأعمدة الأثنى عشر ، ثم صاح «أوذيس » بصوت جَهْوَريّ قائلاً :

– دَنَت الساعة التي يجب أن تُقام فيها مأدُبة الحاطبين يا «تليماك » ، لقد انتهت مباراة الحِذْق والمَهارة ، وبَقِيَ أن نَبْلُغ سِواها من الأهداف .

وقبل أن يفيق الحاطبون من ذُهولهم ، رمى « أوذيس » واحداً منهم كان أكثرهم تَبَجُّحًا ووَقاحة ، بسهم اخترق عُنُقَه وأسال دمَه فسقط مِنْ مقْعَده جُثَّةً هامِدة .

قابل الحاضرون هذا القصاص الأول بصَيْحات الاستنكار والحَنَق فدَوَّى فيهم صوت « أوذيس » مُلَعْلِعًا كالرَّعْد ، وقال وشَرَرُ الغضب يتطاير من عينيه .

– ما كنت تتوقَّعون أيّها الكِلاب أن أعود ... لقد هَدرْتُم أموالي ، وأهَنْتُم زوجتي وابني ، فها هي ذي ساعتكم الأخيرة قد حانت ، ولا مَناص لكم منها ولا مَفَرّ .

فامْتُقعت وجوهُهم ، واضطَّربت مفاصِلُهم خوفًا ورُعْبًا ، وراحوا يطلبُون الصَّفْح والغُران ، ولكن لا رحمةَ في يوم الثأر ، فانهالت عليهم السهام وأصابَ كلٌّ منها هَدَفه .

وكاد النصر في لحظةٍ من اللَّحَظات يَفْلِت من يد « أوذيس » فقد خان أحدُ الخدم سيِّد القصر ، وجاء بالسلاح الذي كان « تليماك » قد أخفاه في القَبْو فوزَّعَه على الخاطبين .

وخاضت عندئذ « مينرفا » غِمار المعركة ، ووقفت بجانب «أوذيس» وابنه تَنْفَحُهما بقوًى جديدة ، وتبُثّ الحَيْرَة والاضطّراب في نفوس خصومِهما ، فازدادت المَعْمَعَمة عُنْفًا واحْتِدامًا ، وضاعف «أوذيس» ضَرَباته ، وصال «تليماك» صولَةَ الأسد الغَضُوب ، فتكدّست الجثث في القاعة ، وسالت على جَنَباتها دماءُ الموتى ، ولم يشأ «أوذيس» أن يحْقِن دمَ أحدٍ من غرمائه ، فانقَضَّ على مَن بَقِيَ حَيًّا منهم وأراده قتيلاً ، وهكذا تمّ له النصر ، وأرْوَى غليل ثأره

وبغضائه ، وأنْقَذَ القصر من ضُيوفه الأوْغاد .

وأقبلت المُربِّية العجوز على دَوِيّ الضَّوْضاء والجَلَبة وشَهِدت ما شَهِدت فملأت الجوَّ بصِياح البَهْجة والفرح ، فقال لها « أوذيس » :

– خَلِّي عنك أمارات السرور ، فلا شَماتةَ في الموت ، وادْعِي الخادمات يُزِلْن آثار المعركة ، ويَغْسِلْن الأرض والجُدْران .

فانطلقت المُربّية إلى (ينلوب) تخبرها بما حدث قائلة :

– سيّدتي « ينلوب » لقد عاد « أوذيس » ومات جميع الخاطبين .

فقالت لها « ينلوب » :

– أجُنِنْت يا هذه ؟ إني لا أصدّق ما تقولين .

ولكّنها مع ذلك نَفَرَتْ من مِخْدَعها ، ونزلت إلى القاعة الكبرى، فلمحت « أوذيس » مستنداً إلى أحد الجُدْران ، وهو ما زال في زِيِّه الرَّثِيث ، فلم تصدّق أنه زوجها ، ووقفت عند عَتَبة الباب حائرةً مترددّة ، فصاح فيها « تليماك » .

– ماذا بك يا والدتي ؟ أقُدَّ فؤادك من الحِجارة ؟ ألا تعرفين أبي العزيز ؟

ولكن « ينلوب » لم تكن تَرَى أمامها إلا متسوّلاً شيخًا أحْنَت الأيام ظهرَه ، ولوَّث الدَّمُ وجهَه ويديه ، فهبَّت عندئذ الرّبَّة ذات العينين الزَّرْقاوَيْن تُشِيع المَلاحة والجمال في قَسَمات « أوذيس » ، فاعتدلت قامَةُ البطل ، واستعاد شعرُه ولحيتُه تصفيفهما الجميل ،

والتمعت عيناه ببريق جديد .

فعرفته حينئذ « ينلوب » وكاد يُغْمَى عليها من شدّة الفرح ، ثم انطلقتْ إلى زوجها وهي تبكي ، وطوَّقَتْه بذِراعَيْها ، وقبَّلَتْ رأسه ، وبَقِيا متعانقين كأنهما غريقان حَطَّا أخيراً على شاطئٍ كريم ، بعد أن تقاذفتهم الأمواج مدةً طويلة .

وفي تلك الليلة ، لم يكن في جزيرة « إيتاكا » كلها أسعد من «أوذيس» و « ينلوب » وابنهما « تليماك » فلا فراق بعد اليوم ولا أحداث، وإنما هي أيام أصْفَى من النَّدَى ، تنتظر المحارب الشجاع الذي عاد إلى وطنه ، ووَصَل من مغامراته إلى خاتمَة المطَاف .

رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٧٢٢٩
الترقيم الدولي	977 – 02 – 3778 – 7 ISBN

١٨٠ / ٩٢ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

٢١٢٥٦٩